

هذه الرواية هدية من

للترجمة
والنشر
الأجيال

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمل
أن توفر لك هديتنا المجانية قراءة ممتعة.
يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية
(وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة،
ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو
احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبحاث كريسي

الأربعة الكبار

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٢٧

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: جهاد الكردي

تحرير: رمزي رامز حسون



للترجمة
والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٢٧ بعنوان

The Big Four

Copyright Agatha Christie 1927

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بآية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الخامسة

٢٠٢٠

مقدّمة الناشر لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفدّة، أغانا كريستي، تساءل كثيرون باستغراب: لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال، إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص (وإن بدت غير ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً) أن أيّاً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني، أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، ومن ثمّ لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلاث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يَمَلَّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكنَّ مَنْ قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيَّب عنه بعض التفاصيل المهمة، كما فوّت عليه الاستمتاع بكثير من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفدِّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثيرٌ منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحبكة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نسق في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسمي بطلِّي أغاثا الشهيرين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنغز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة

خلال الروايات، وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفّت أسوأ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطع كاملة منها مطموسة مستعصية على القراءة لا تكاد تبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبّر عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثيرٌ من المتأدبين.

(٦) وأباح هؤلاء «المرجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها، فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القراء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في

مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرَف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبه من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجم بعد إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

* * *

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلف) ف عقدنا معهم اتفاقاً ووقعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق أكثر من عشر سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفدنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العاملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاية ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة أخضعت الترجمات لمراجعة كاملة دقيقة لكل نص مترجم؛ أسلوبياً ولغوياً ونحوياً

وإملائياً، مع العناية بالتفكير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العملَ واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفِّذَ هذا العمل لدى أفضل مراكز الصف، وبُذِلَ في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْعِ الكتاب بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراء لميول كثير من القراء وُجِدَ فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -لرروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجعةُ بعد المراجعة للنص النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاء الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عمل ممكن يطيقه الجهد البشري.

* * *

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب العلم ولم نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالبٌ -إذا عمل- بأن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والراقي ما يستحق السعي إلى مثله -إذ يُترجم- في النص المُعرَّب.

وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ

بالحصول على الأفضل. وهذا هو بالذات ما سعيينا إليه في
نهاية المطاف. فهل وُفِّقنا؟ نرجو أن نكون، وأنت -عزيزنا
القارئ- خيرُ حَكَم.

الأجيال

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجنا اعتمادَ الفصاحة بلا تكلف، فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «السَّلْطَة» و«الكُشْك»، ومثل قولهم: «سَرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبَّهنا إلى بعض المفردات مما يُخلط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكر يُؤنث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، والرأس مذكر لا يجوز تأنيثه (كما يشيع في الكتابات المصرية خاصة).

وكذلك تبهنا إلى بعض ما درج على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحَّ وسمِعَ عن العرب في هذا المقام، مثل قولهم: «خصيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«جاؤوا سوياً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سوياً» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمِع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

وفي أسماء الشهور اخترنا كتابة الاسم العربي للشهر متبوعاً بالاسم الأعجمي بين قوسين، لأن من بلدان العرب (مع الأسف) من لا يعرف أهلها أسماء الشهور العربية، كأهل مصر وأكثر بلاد الجزيرة العربية وبلدان المغرب العربي كلها. فنكتبها بهذه الطريقة: حزيران (يونيو)، تشرين الثاني (نوفمبر)، إلخ.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَنْ يكتب إذن بالألف، لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل:

قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلَّما» أسوةً بأمثالها، فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «مما» (من ما) و«عما» (عن ما) و«إلا» (إن لا)، ومثلها: «إنما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثير من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: «وهو أقرب إلى الصواب». وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، إلخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمسة مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبت همزات القطع وتُحدَف همزات الوصل، وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطنون الاثنتين أو يجردونهما كليهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً، وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشُّكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس، كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشدَّة

-خصوصاً- في غير المواضع المدركة سليقةً، إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أوليناها كل عناية ممكنة، فهي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهم»، بها يتم المعنى ويصحّ المقصود. واتبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصول التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتبعة في عالم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً.

فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية، إذ ليس من المتيسّر في الصف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غير متفق عليه ولا هو معتمد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة.

أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأملت مخرج هذا الحرف ومخرج الجيم لوجدتهما متباعدين تباعداً

بيّنًا، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكْتَب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتَّفَق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه. وانظر كيف كتبوا أكثر ما عربوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«السنغال» و«بلغاريا» و«غريتش»... وأمثال ذلك كثير كثير.

وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغانا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. واستثنينا من الكتابة بالغين فقط كلمة «إنكلترا» والنسبة إليها (إنكليز وإنكليزية) لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا.

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقّقة (كما في: cat)، والألف المفخّمة (كما في: car)، والألف الممالة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالة المرقّقة (كما في: bone)، والواو الممالة المفخّمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعى الياء فكتبناها ياءً، ما عدا الألف

الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيستنجز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب، فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلفة في سطور

تُعتبر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر من كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبِع منها بليونَي (ألفي مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قط إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها، فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرض ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين؛ جرّبي وستريّن".

عندئذ كتبت أغاثا كريستي أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشر فلم تُنشر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب، وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين،

وبعدما حبسها الناشر السابع في أدراجه لمدة ثمانية عشر شهراً
متردداً في نشرها!

* * *

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد
لأبٍ مرحٍ مُحَبِّ للحياة وأم ذكية تحب الطموح، وقد ظلت
-حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير
من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تدم، فقد توفي
والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية
لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا
للعمل في أحد المستشفيات ممرضةً تساعد جرحى الحرب.
وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت
إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة
في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طياراً شاباً
اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد
موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت مرة أخرى عام
١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مألوان، وهو الذي
أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق
وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه
البلاد، مثل: «موت فوق النيل» و«لقاء في بغداد» و«جريمة
في بلاد الرافدين» و«موعد مع الموت». وحينما سافرت على

متن قطار الشرق السريع خرجت بوحدة من أشهر رواياتها:
«جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغانا كريستي عن نفسها فقالت: «لو سُئلت عن ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها».

أما رواياتها فتتميز بدقة حَبْكته وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محللةً كوامنها باحثاً عن دوافعها بعبقريّة فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجل أو يسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بد أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

* * *

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «قضية ستايلز الغامضة»، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة. وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثل في بريطانيا! وغالباً ما

يرافقه في تحقيقاته صاحبه الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيسْتِنغز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الأنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذة على الملاحظة والتحليل وفهم عميق للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكة واسعة من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

* * *

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعة وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنْسيَّة باسم مستعار هو ماري ويستماكوت، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيصة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ، إذ ما زالت تُعرض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢.

أما سيرة حياتها التي كتبها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا مع كتاب ذكرياتها الآخر «أخبريني كيف تعيشين»، حيث ستكون هذه المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

الأربعة الكبار

الفصل الأول الضيف والمفاجأة

كم أدهشتني رؤية أولئك القوم وهم يجلسون على
مقاعدهم الخشبية يعبرون القنال هادئين، فإذا وصلوا انتظروا
حتى ترسو السفينة ثم قاموا إلى متاعهم يجمعونه بلا ضجيج.

أما أنا فلا أبقى هادئاً ولو حيناً من الوقت، فإني أبدأ
بالاضطراب منذ اللحظة التي أركب فيها في السفينة، فيسيطر
عليّ شعور بأن الوقت قصير جداً لا يكفي للراحة والعودة،
فأنطلق أجمع حقائبي وأحركها من مكان إلى آخر، وإذا نزلت
إلى الصّالة لكي أكل طعامي فإني أبتلعه بسرعة وارتباك مخافة
أن تصل السفينة فجأة وأنا ما أزال في الأسفل.

ربما كان هذا ممّا أورثتنيه الحرب، فقد كنت إذا أخذت
إجازة قصيرة أجعل اهتمامي بأن أستأثر نفسي بموقع قريب من
المخرج لكيلا أهدر بضع دقائق ثمينة من إجازتي القصيرة ذات
الأيام الثلاثة أو الخمسة.

في صباح ذلك اليوم من تموز (يوليو) كنت أقف مستنداً

إلى الحافة أراقب المنحدرات الصخرية البيضاء في دوفر وهي تقترب رويداً رويداً. لقد أثارني مشهد المسافرين يجلسون على مقاعدهم بكل هدوء، فلم تتحرك مشاعرهم ولا رفعوا عيونهم ليروا منظر وطنهم الأول. ربما اختلفت حالهم عن حالي قليلاً، فأكثرهم كان عائداً -فيما يبدو- من رحلة قصيرة أمضى فيها عطلة نهاية الأسبوع في باريس، في حين أقيم أنا بعيداً في مزرعة كبيرة في الأرجنتين منذ سنة ونصف، حيث حققت نجاحاً كبيراً واستمتعت مع زوجتي بحياة حرة بسيطة في أمريكا الجنوبية.

راقبت ذلك الشاطئ المؤلف يدنو رويداً رويداً بشعور من الشوق والقلق، فقد أثار في نفسي ذكريات وذكريات! لقد نزلت في فرنسا قبل يومين من أجل بعض الأعمال الضرورية، وها أنا ذا في الطريق إلى لندن، والواجب أن أمكث فيها بضعة أشهر حيث يتسع الوقت لزيارة أصدقائي القدامى، لا سيما صاحبي الضئيل الحجم صاحب الرأس البيضوي والعينين الخضراوين، هيركيول بوارو.

عزمت أن أفاجئه بزيارتي تلك مفاجأة مقصودة، وإن كانت رسالتي الأخيرة التي بعثتها إليه من الأرجنتين تلمح إلى رحلتي التي اتخذت القرار بشأنها على عجل بعد مواجعتي لبعض المصاعب في العمل.

تُرى ماذا يصنع بوارو حين يراني؟

أيقنت أنه سيكون على الأغلب مستغرقاً في أعمال التحريات ، لأن الوقت الذي كانت قضاياه تضطره للسفر من شمال إنكلترا إلى جنوبها قد انقضى وما عاد يرضى أن تستغرق قضية واحدة كل وقته، فقد ذاع صيته واشتهر وحقق كثيراً من طموحه، ثم إن الوقت يهيئه ليصبح «مستشاراً فذاً في التحري والتحقيق» تماماً مثل الطيب المختص الشهير في شارع هارلي!

كان بوارو يسخر دائماً من الفكرة الشائعة عن المحقق الذي يشبه الكلب، يتعقب المجرمين ويقف عند كل أثر قدم، وكان يقول: لا يا صديقي هيستنغز، هذه هي طريقة جيروود وأصحابه، أما أسلوب هيركيول بوارو فإنه مختلف تماماً: التنظيم والمنهجية و«الخلايا الرمادية». إذا جلسنا نحن على مقاعدنا نستريح فسوف نستطيع أن نرى أموراً غفل عنها آخرون، ونحن لا نقفز إلى النتيجة قفزاً مباشراً كما يصنع صديقنا الكفاء جاب.

خشيت أن يكون بوارو مسافراً، إلا أنني سرعان ما طردت هذه الوسوس المقلقة. وحين وصلت إلى لندن أودعت متاعي في فندق وانطلقت بالسيارة مسرعاً إلى العنوان القديم.

أي ذكريات ممتعة أثارها هذا المكان في نفسي! وانتظرت بشيء من القلق لكي أقدم التحية لصاحبة البيت الذي كنت أسكنه، ثم انطلقت أصعد الدرج درجتين درجتين، وطرقت باب بوارو وإذا بصوته المعهود يهتف: ادخل.

دخلت فإذا بوارو أمامي وجهاً لوجه، وما إن رأيته حتى

سقطت من يده حقيبة سفر فارتطمت بالأرض لشدة المفاجأة،
وصاح: هيستنغز، هيستنغز!

أقبل عليّ وعانقني عناقاً حاراً، ودار كلاً منا غير مترابط
ولا مفهوم: هتاف وأسئلة متلهفة وأجوبة مبتورة وكلام عن
رحلتي ورسائل... كله اختلط اختلاطاً عجبياً.

وأخيراً سألته حين هدأنا من ثورة الشوق قليلاً: أرى أن
في غرفتي القديمة شخصاً ما، وأحب أن أعيش معك هنا مرة
أخرى.

تغير وجه بوارو من هول المفاجأة وهتف: يا إلهي، أي
فرصة سيئة التوقيت هذه! انظر حولك يا صديقي.

لأول مرة لاحظت الأشياء من حولي: صندوق ضخّم
على الطراز القديم بجانب الجدار، وإلى جواره عدة حقائب
مصنوفة كلٌّ حسب حجمها، وقد أُعدَّت للسفر حتماً، لا شك
في ذلك.

هتفت: هل أنت راحل؟

- نعم.

- إلى أين؟

- إلى أمريكا الجنوبية.

صحت بانفعال: إلى أمريكا الجنوبية؟!

- نعم ، إنها مهزلة مضحكة ، أليس كذلك؟ أنا مسافر إلى ريو في البرازيل ، وكنت في كل يوم أقول: لن أكتب شيئاً في رسائلتي حتى تكون مفاجأة لصديقي الطيب هيستنغز حين يراني.
- ومتى ستذهب؟

نظر بوارو في ساعته ثم قال: في غضون ساعة واحدة.
- أتذكر أنك كنت تقول: لن يقنعني شيء أبداً بالسفر في رحلة بحرية طويلة.

ارتجف بوارو وقد أغمض عينيه وقال: لا تحدثني في ذلك! إن طبيبي يؤكد لي أن الإنسان لن يموت من رحلة واحدة كهذه يا صديقي ، وأنت تعلم أنني لن أرحل مثلها مرة أخرى أبداً.

ثم جذبني نحو المقعد وأردف قائلاً: ستعرف كل ما حصل. أتدري من هو أغنى رجل في العالم؟ روكفلر؟ هذا الرجل أغنى من روكفلر ، إنه آبي ريلاند.

- ملك الصابون الأمريكي؟

- نعم. لقد اتصلت بي إحدى سكرتيراته وقالت إن عصابة تمهد لعمل احتيال ضخم يرتبط بشركة كبيرة في ريو ، وهو يرجوني أن أحقق بالمسألة هناك ، فرفضت وقلت: إذا كانت الحقائق بين يدي فسوف أقطع عندئذ برأيي دون أن أضطر إلى السفر. لكنه أجابني بأنه لا يستطيع تقديم الحقائق وأن عليّ

أن أجتهد لكشفها بنفسي عندما أصل عنده. كان من شأن هذا الشرط أن يُلغى الصفقة منذ البداية، لأن من الوقاحة الشديدة أن يُملى على هيركيول بوارو ما ينبغي أن يفعله! لكن الأجر الذي عرضه عليّ كان مذهلاً جداً يا صديقي. لأول مرة أشعر أن المال وحده يغريني! لقد كان الأجر ثروة طائلة، ولا تنس الأمر الآخر الذي كان مصدر إغراء لي أيضاً... أنت يا صديقي. لقد كنتُ عجوزاً وحيداً في عام ونصف هي مدة غيابك، وقد قتلتني الملل والضجر وأنا أحلّ المشكلات الحقيرة التي لا تنتهي، ثم إنني قد تحققت لي شهرة تامة، ففكرت في نفسي: لماذا لا آخذ ذلك الأجر الكبير وأزور صديقي القديم؟

تأثرت كثيراً من نظرة بوارو إليّ، وتابع كلامه: من أجل ذلك قبلت، والآن عليّ أن أغادر هذا المكان خلال ساعة واحدة لألحق القطار الذي سينقلني إلى الميناء حيث ترسو السفينة. إنها إحدى عجائب الزمن، أليس كذلك؟ لكنني أعترف بأنني ربما كنت سأتردد لو لم يكن الأجر كبيراً جداً، حيث إنني بدأت أخيراً بإجراء تحقیقات على درجة كبيرة من الخطر والإثارة. قل لي: ما الذي يُقصد -عادة- بعبارة «الأربعة الكبار»؟

- أظن أن هذا المصطلح جاء أصلاً في مؤتمر فرساي، ثم نعرف الأربعة الكبار المشهورين في عالم السينما، وهذا الاصطلاح يقال أيضاً في بعض الحفلات والأعياد.

- حسناً، لقد سمعتُ هذه العبارة ذات يوم، لكن أياً من التفسيرات التي ذكرتها لا ينطبق عليها. يبدو أنها تعني عصابة

دولية من المجرمين أو شيئاً من هذا القبيل.

سألته باهتمام: ماذا؟!

- أتخيل أنها تشير إلى شيء قوي ضخيم. إنها فكرة صغيرة لديّ فحسب. هيا، يجب أن أكمل حزم الأمتعة فالوقت يقترب.

قلت أرجوه: لا تذهب. لماذا لا تلغي التذكرة ثم تسافر معي في سفيتي نفسها التي سأغادر عليها بعد شهرين؟

أشاح بوارو بوجهه عني بعد أن رمقني بنظرة قاسية فيها تأنيب، وقال: كأنك لم تفهمني تماماً! لقد قلتُ كلمة. ألا تعرف أن هيركيول بوارو يحترم كلمته؟ لاشيء ينبغي أن يعيقني الآن إلا الموت.

همستُ حزيناً: وهذا ما لا أتوقعه، ما لم يقع أمر طارئ في اللحظة الأخيرة.

ما لبثنا كلانا أن سمعنا بعد برهة صمت قصيرة صوت حركة مريية في الغرفة الأخرى، فصحت: ما هذا الصوت؟

ردّ بوارو سريعاً: يا إلهي! كأنك نطقت بما سيقع، أمر طارئ في اللحظة الأخيرة! إنه شخص غريب في غرفة نومي!

- كيف دخل إليها؟ ليس لتلك الغرفة باب إلا الباب الذي يوصل إلى هنا.

- ما أقوى ذاكرتك ياهيستغز! هيا إلى الاستنباط.

- إنه الشبّاك. فهو لص إذن؟ لا بد أنه تسلق إليه بصعوبة بالغة، لكن هذا أشبه بالمستحيل!

اتجهتُ إلى الباب حذراً مستطلعاً، غير أن حركة مقبض الباب من الداخل أوقفني مدهوشاً. فُتح الباب قليلاً قليلاً وظهر رجل ذو وجه شاحب تبدو عليه علائم الإرهاق والإعياء. حدّق إلينا ثم ترنّح وسقط، فهتف بوارو قائلاً: ماء، بسرعة.

أحضرت كأساً من الماء، واجتهد بوارو أن يسكب في فمه بعضاً منه ويرشّ وجهه بالباقي، ثم حملناه ومددناه على الأريكة، وما لبث أن فتح عينيه بعد دقائق ونظر نظرة ذاهلة لا تدل على بشيء.

سأله بوارو: ماذا تريد يا سيد؟

فتح الرجل فمه، ثم نطق بصوت غريب بضع كلمات: السيد هير... كيول... بوارو... ١٤... شارع فاراوي؟
- نعم، نعم، أنا هو.

يبدو أن الرجل لم يفهم شيئاً، وأعاد عبارته الأولى باللهجة ذاتها: السيد هيركيول بوارو، ١٤ شارع فاراوي؟

حاول بوارو أن يختبره بأسئلة مختلفة، لكن الرجل لم يُجب عن الأسئلة أحياناً، وحيناً كان يردد كلمته السابقة، فأشار بوارو عليّ بأن أتصل بالهاتف: اطلب الدكتور ردغوي لكي يحضر فوراً.

لم تمضِ بضع دقائق حتى كان الطبيب يدخل مسرعاً،
فبيته كان في الشارع نفسه. سأل: ما هذا كله؟

سرد له بوارو موجزاً، وبدأ الطبيب يفحص زائنا الغريب
الذي كان في غيبوبة لا يدرك ما يجري حوله، وحين انتهى قال
الدكتور ردغوي: آه، إنها حالة تثير التساؤل.

همست: حمى دماغية؟

صاح الطبيب منكرأ: حمى دماغية، حمى دماغية؟ لا
شيء عندنا اسمه «حمى دماغية»، هذا من كلام الروائيين فقط!
لا، هذا الرجل أصيب بصدمة قوية، ثم جاء هنا وقد سيطرت
عليه فكرة ملحة ليجد السيد بوارو القاطن في العمارة رقم ١٤
بشارع فاراوي. وقد كرر هذه العبارة ولم يدرك معناها تماماً.

قلتُ بلهفة: إذن فهو احتباس الصوت بسبب إصابة لحقت
بالدماغ؟

لم يُبْر هذا السؤال الطبيب كما صنع سؤالي الأول، لكنه
لم يُجِب، بل دفع للرجل قلماً وورقة وقال: لنرَ ماذا سيفعل؟
لم يفعل شيئاً بضع لحظات، ثم بدأ يكتب فجأة وبصورة
محمومة، ثم كفّ وترك القلم والورقة يسقطان من يده،
فالتقطهما الطبيب ونظر فيها وهزّ رأسه وهو يقول: لاشيء هنا
سوى رقم «٤» مكتوباً بصورة غير واضحة اثنتي عشرة مرة،
وفي كل مرة يكون الرقم أكبر من المرة التي قبلها. لعله يريد

-على ما يبدو- أن يكتب: ١٤ شارع فاراوي... إنها حالة مثيرة للاهتمام، مثيرة للاهتمام حقاً.

فكر الطبيب برهة ثم قال: لكن هل -يا ترى- تسمحان بأن يبقى هنا إلى ما بعد الظهر؟ أنا مضطر أن أذهب إلى المستشفى الآن، وسوف أعود بعد الظهر لأصنع ما ينبغي بشأنه. هذه قضية تستحق الاهتمام وأود فحصها بهدوء.

أخبرته عن سفر بوارو ورغبتني بمرافقته إلى ساوث هامبتون، فقال: حسناً، دعا الرجل هنا. إنه لن يسبب أذى، فهو يعاني من إعياء ثقيل وقد ينام ثماني ساعات متواصلة. سأكلم جارتكم الطيبة السيدة فينيس وأسألها أن تعتني به.

ثم خرج الدكتور ردغوي مسرعاً بخفته المعهودة وأكمل بوارو حزم متاعه وعينه تراقب الساعة. قال: الوقت يمضي سريعاً. تعال هنا يا هيستنغز، لن أدعك تقول إنني تركتك بلا عمل. إنها مشكلة غريبة حقاً، هذا الرجل الغريب: من هو؟ ومن أين جاء؟ آه! كم أودّ لو أضحي بسنتين من عمري من أجل أن تتأخر السفينة يوماً واحداً، إلى الغد بدلاً من اليوم. في هذا الأمر ما يثير السؤال ويدعو إلى الاهتمام، لكن الوقت ثمين. الوقت... ربما تمضي أيام، بل أشهر، قبل أن يصبح الرجل قادراً على التعبير عن أفكاره!

- سأبذل جهدي يابوارو، سوف أكون بديلاً كُفئاً عنك.

قال بتردد: نعم... نعم.

دُهِشت لردّه الذي بعث في نفسي شكوكاً، فأخذت الورقة وقلت مرحاً: لو كنت كاتباً لحبكت قصة من هذه الورقة وكلمتك التي قلتها سابقاً وأسميتها «لغز الأربعة الكبار».

كنت أضرب على الأرقام المكتوبة وأنا أتكلم، وقد أصابتنى رعشة حين نهض مريضنا فجأة من غيبوبته وجلس قائلاً بصوت واضح: لي شانغ ين.

أوحى شكله أنه نائم صحا من نومه فجأة! طلب بوارو مني أن أمتنع عن الكلام معه، واستمر الرجل يتكلم بصوت واضح جهوري وكأنه يلقي درساً أو يقرأ بياناً مكتوباً:

لي شانغ ين، زعيمُ العقول الأربعة الكبار، إنه القوة الضابطة الآمرة، لذلك سمّيته رقم «١»، أما رقم «٢» فنادراً ما يُذكر باسمه، لذلك فإن رمزه «\$» علامة الدولار، ورمزه أيضاً شريطان ونجمة مما يوحي بأنه أمريكي، وهو يمثل قوة الثروة. أما رقم «٣» فالظاهر أنها امرأة، وهي فرنسية، وربما تكون واحدة من نصف العالم الجديد، ربما، لا أجزم. أما رقم «٤»...

بُحَّ صوت الرجل وتلعثم لسانه وكفَّ عن الحديث، فاقترب منه بوارو يحثّه على الكلام بلهفة: نعم، رقم «٤»؟

كانت عيناه مثبتتين على وجه الرجل الذي سيطر عليه الرعب، وقال الرجل لاهتئاً: المدمر!

ثم تشنَّج فزعاً وسقط مرة أخرى وغاب عن الوعي،

فهمس بوارو: يا إلهي! لقد كنت على صواب إذن، كنت على صواب.

حاولت أن أتكلّم: تظن...

- ساعدني لنحمله إلى السرير، فلا أملك أن أضيع دقيقة واحدة وإلا فاتني القطار. آه! ليتني لم أقدم وعدي، لكان يمكنني -حينئذ- إلغاء السفر بضمير مرتاح. لكن الوعد تحقّق، هيا يا هيستنغز.

تركنا الزائر الغريب برعاية السيدة بيرسون وانطلقنا مسرعين في السيارة فأدركنا القطار. وبينما كان القطار يشقّ طريقه إلى ساوثهامبتون راح بوارو ينظر عبر النافذة وكأنه في حلم، يصمت حيناً وينطق حيناً آخر، إلا أنه -على كل حال- لم يسمع كلمة واحدة من حديثي له. وكان حيناً يصحو فجأة فيُلقي عليّ كومة نصائحه وإرشاداته ويرجوني أن أداوم على مراسلته وأن أستمر بالإبراق إليه بكل ما يجِدّ من أنباء.

قطع القطار مسافة طويلة نحو ساوثهامبتون دون توقف على الطريق، وبعد أن اجتاز مقاطعة ووكِنغ ساد بيننا صمت طويل حتى توقف القطار فجأة عند إشارة ضوئية، فاهتاج بوارو فجأة وصرخ: يا إلهي! هذا رائع، هذا رائع! لقد كنت أبله، أما الآن فقد فهمتُ كل شيء. العناية الإلهية هي التي أوقفت القطار بلا شك، اففز يا هيستنغز، قلت لك اففز!

وبسرعة خاطفة فتح باب العربة وقفز من القطار وصرخ

بحزم: هات الحقائق واقفز، هيا بسرعة.

لم أملك إلا طاعة بوارو بلا تفكير، فقفزت. وما إن وطئت
قدماي الرصيف حتى كان القطار ينطلق كالبرق، فقلت بنبرة
ساخرة: والآن يا بوارو، هلاً أفهمتني كل هذه الحركات التي
لم أفهم منها أي شيء؟

- يا صديقي، لقد رأيتُ الضوء!

قلت مستنكراً: هذا واضح تماماً.

- يجب أن يكون واضحاً، لكنني أخشى أن الأمر ليس
كما قلت. على كل حال فلو حملت حقيبتين من هذه فسوف
أدبر أنا الحقائق الباقية.

* * *

الفصل الثاني

ضيفنا من المصححة العقلية

مشينا على الأقدام مسافة قليلة ثم ركبنا سيارة أجرة إلى البيت ، ولحسن الحظ فإن المكان الذي توقف القطار عنده لم يكن بعيداً عن موقف السيارات. وفي غضون نصف ساعة كنا في طريق عودتنا السريعة المثيرة المدهشة إلى لندن.

تلطف بوارو بي وهو يجتهد أن يخفف من حيرتي ، قال :
ألا ترى يا صديقي؟ لم أدرك من قبل ما ظهر لي الآن. إنها مؤامرة ذكية أحكمت خيوطها من أجل دفعي لأخرج من طريقهم!

- ماذا؟

- نعم، بخطة ذكية متقنة اختاروا المكان المناسب والأسلوب بعناية فائقة وفطنة غير مسبوقه. إنهم يخافونني.

- من هم؟

- عصابة الشياطين الأربعة الذين صنعوا اتحاداً شريراً يعمل في غفلة من القانون: رجل من الصين وثري أمريكي

وامرأة فرنسية ورجل رابع. ابتهل إلى الله أن نصل البيت سريعاً
يا هيستنغز.

- هل تظن أن زائرنا في خطر؟

- بل أجزم بأنه كذلك.

عندما وصلنا حيّتنا السيدة بيرسون وهي تنظر إلينا بدهشة
واستغراب، وسألناها عن الضيف دون اكرات بدهستها فأجابت
بأن حاله حسنة وصحته تدعو إلى الطمأنينة.

صعدنا إلى الشقة وقد ظهرت في وجوهنا علامات
الراحة، وعبر بوارو الغرفة الأولى متجهاً إلى الأخرى، ثم
ناداني بصوت متهدج غريب ينطق بالفزع: هيستنغز... إنه ميت!

ركضت إليه وقلبي يدق بعنف من هول المفاجأة. كان
الرجل ما زال مستلقياً كما تركناه، ويبدو أنه مات منذ بعض
الوقت. ثم خرجت مسرعاً في طلب الطبيب، وكنت أعلم أن
الدكتور ردغوي ليس في عيادته فدعوت طبيباً غيره قريباً حضر
معي في الحال.

قال: إنه ميت تماماً، هل هو صديق لك؟

- نعم، لكن ما سبب وفاته أيها الطبيب؟

- يصعب تحديده. ربما يكون بسبب سكتة قلبية، كما
تبدو عليه بعض علائم الاختناق. هل عندكم خط غاز ممتد
إلى هنا؟

- لا، فنحن نعتمد في الإنارة على الكهرباء.

- والنافذتان مفتوحان تماماً أيضاً؟ كأنه مات منذ ساعتين.

أنتم ستخبرون الشرطة، أليس كذلك؟

خرج الطبيب وقام بوارو بالاتصال اللازم، ثم اتصل
بصديقنا القديم المفتش جاب وسأله الحضور.

لم يَمُضِ وقت طويل حتى حضرت السيدة بيرسون
وعيناها جاحظتان من الدهشة والعجب، وقالت: بالبواب رجل
من المصححة العقلية، هل أسمح له بالدخول؟

أشار لها بالموافقة، فدخل رجل ضخم الجسم في زي
خاص، وقال بمرح: صباح الخير يا سادة. لقد علمت أن
عصفوراً من عندنا طار إلى هنا، لقد فرَّ ليلة أمس.

بوارو: لقد كان هنا.

- وهرب مرة أخرى؟

طرح سؤاله بقلق واهتمام، فقال بوارو: بل مات!

ظهرت علائم الطمأنينة على الرجل وقال بتكلف: هذا
خير لنا جميعاً.

- هل كان خطيراً؟

- إن كنت تقصد أنه مهووس بالقتل فإنه لم يكن كذلك،
بل هو مسالم وهو ذكي جداً، إلا أنه مليء بالأسرار، والظاهر

أن الجمعية الصينية السرية هي التي أسكتته.

شعرت بالردة تسري في جسدي ، ثم سألت : كم مضى عليه وهو على هذه الحال؟

- نحو سنتين.

قال بوارو بهدوء: ألم يخطر ببال أحد أنه ربما يكون عاقلاً؟

سَخِرَ الرجل وقال: لو كان عاقلاً ما كان في ضيافتنا. كلهم يزعمون أنهم عقلاء!

ثم دخل الرجل فتعرّف إلى الجثة وقال: الآن عليّ أن أذهب لأتخذ الخطوات اللازمة. لن ندع الجثة عندكم طويلاً، أرجو أن تساعدوا الشرطة في التحقيق، شكراً لك يا سيدي.

مضى الرجل ، وبعد بضع دقائق وصل جاب ، وكان أنيقاً واثقاً من نفسه على عادته. قال: أنا مستعد للعمل يا سيد بوارو. كنت أظنك ذاهباً إلى الشواطئ المرجانية.

- هل تعرف هذا الرجل من قبل؟

غلبت الدهشة والحيرة على نظرات جاب الفاحصة إلى الجثة ، ثم قال بنبرة فيها شيء من الارتباك: كأني أعرفه... دعني أنظر إليه ، إن لي ذاكرة أعتزّ بها. آه ، إنه مايرلنغ! مايرلنغ رجل الاستخبارات السرية الذي ذهب إلى روسيا قبل خمس سنوات وانقطعت أخباره ، كنا نظنه قُتل!

هَمَّ جاب بالخروج فقال له بوارو: كل شيء يبدو معقولاً،
لكنه مات بطريقة عجيبة.

هَبَّ الهواء عبر النافذة المفتوحة وراح يداعب الستائر،
فنظر بوارو إلى الجثة بتقطيب واضح وقال: هل فتحت النافذة؟

- لا، لم أفعل. لقد كانت مغلقة.

- كانت مغلقة لكنها الآن مفتوحة، ما معنى ذلك؟

- شخص ما دخل من النافذة.

- هذا جائز، لكنه ليس ما يشغل بالي، إنما أثار انتباهي
أن النافذتين مفتوحتان لا واحدة!

اندفع نحو الغرفة الأخرى، ثم صاح كَمَنْ وجد شيئاً:
نافذة غرفة الجلوس مفتوحة أيضاً، وقد كنا تركناها مغلقة!

مال فوق الجثة وفحص فم القاتل بدقة، ثم قرر واثقاً:
لقد وُضع في فمه شيء ما ليكتفم صوته ثم سُمِّم.

شعرت بالصدمة وأوجست خوفاً في جسدي، وقلت:
سنعرف الحقيقة بعد التشريح.

- لن نعرف شيئاً لأنه مات بسبب استنشاق حمض
البروسيك الحادّ سريع التطاير بعدما لُصق بأنفه تماماً، ثم
هرب القاتل بعد أن فتح النوافذ كلها. الأطباء سيسجلونها ميتة
طبيعية ولن يجدوا أثراً يعرفونه، وسوف يُسدّل الستار على

رجل الاستخبارات السرية الذي مضت على اختفائه خمس سنين.

ثم ارتعش بوارو فجأة وهو ينظر إلى ساعة الحائط وقال: لقد توقفت عند الرابعة! لقد عبث بها شخص عبثاً مقصوداً.

- ترى لماذا فعلوا ذلك؟ من أجل التضليل؟

- لا يا صديقي؛ أعملُ فكرك، شغلُ خلاياك الرمادية. كان مايرلنغ ينتظر الموت المحتوم لكن كانت في صدره أشياء خطيرة، لقد استطاع أن يترك علامة واضحة قبل أن يلفظ أنفاسه... رقم «٤»، «المدمر»! آه، لقد جاءتني فكرة.

اندفع سريعاً نحو الغرفة الأخرى وأمسك بالهاتف وطلب رقماً من الاستعلامات، وأدار الرقم ثم سأل: هل هذا هو مستشفى الأمراض العقلية؟ لقد علمتُ أن مريضاً هرب من المستشفى اليوم...

ثم وضع السماعة قائلاً: هل سمعت يا هيستنغز؟ لم يهرب أحد!

- وذلك الرجل الذي جاءنا... هل تظن...

- المدمر، إنه رقم «٤».

فقدتُ قدرتي على التركيز وشعرت بأني لا أستطيع الكلام، ثم جاهدت للسيطرة على نفسي وحاولت النظر إلى بوارو وقطع الصّمت الذي سببته المفاجآت المذهلة، قلت

أخيراً: سوف نعرفه إذا رأيناه في أي مكان آخر، فما زلت أذكر ملامحه جيداً. لقد كان رجلاً ذا شخصية حازمة.

سخر بوارو مني قائلاً: حقاً يا عزيزي؟ بل كان قوي الجسم ذا وجه أحمر وشارب غليظ وصوت خشن. في المرة القادمة لن تجد فيه أيّاً من هذه الصفات، فهو سيغيّر لون شعره ويتخذ طقم أسنان صناعياً رائعاً وستكون له نظرات مختلفة. إن كشف الهوية ليس سهلاً يا صاحبي، في المرة القادمة...

- هل تظن أن بعد هذه المرة مرة قادمة؟

كان وجه بوارو يفيض حزماً وجِدّاً وهدوءاً، ونظقت ملامحه بالعزم والإصرار، لكن كان فيه ذهول وشروء، ثم تحدث بنبرة قوية: إنها مباراة حتى الموت يا صاحبي، نحن في جانب والأربعة الكبار في الجانب الآخر. لقد ربحوا الجولة الأولى، ربما، لكنهم لم يستطيعوا إبعادي عن طريقهم.

ثم أضاف بتمهل: عليهم أن يحسبوا لهيركيول بوارو ألف حساب.

* * *

الفصل الثالث

معلومات عن لي شانغ ين

عبيثاً حاولت إخراج بوارو عن صمته خلال الأيام القليلة التي أعقبتُ حادثة القتل القذرة وزيارة قيم المصحة العقلية المشؤومة تلك، فقد بقي جالساً في مقعده الكبير يفكر تفكيراً شاقاً وأحبط كل محاولاتي لحمله على الحديث.

طوال تلك المدة بقيت أنتظر عودة المجرم الشقي، ورفضت أن أغادر البيت ولو لحظة واحدة ظناً مني أنه ربما يعود ليأخذ الجثمان، لا سيما وأنه لم يشك في أننا عرفناه.

وسخر مني بوارو ثانية فقال: فلتنتظر يا صديقي ما شئت حتى تضع الملح على ذيل الطير الصغير، أما أنا فلا أضيع وقتي مثلك.

حاولت أن أجادله: حسناً يا بوارو، لماذا غامر إذن فأتي في المرة الأولى دون سبب ولم يكسب منا شيئاً؟ إذن نستطيع أن نفكر بسبب لزيارته الثانية، ربما كي يمحو الدليل ضده.

قال بوارو بطريقته التهكمية: أنت لا تنظر بعين رقم «٤»
يا هيستنغز. لا يوجد أي دليل ضده، الجثة عندنا لكن لا دليل
على أن صاحبها مات قتلاً، لأن حمض البروسيك حين يُستنشق
لا يبقى له أثر. ثم هل عندك شاهد على القاتل؟ بل إنك لن تجد
من يشهد أنه رأى رجلاً دخل البيت في غيابنا! إن المدمّر يتقن
حرفته جيداً وبمهارة تامة، ونستطيع أن نقول إن زيارته كانت
للاستطلاع. لقد أراد أولاً أن يتأكد من موت مايرلنغ، ثم أن
يرى هيركيول بوارو ويخاطب الخصم الذي يجب أن يحسب
له وحده ألف حساب. أن يخاطبه عياناً، نعم.

قلت في نفسي: أيّ غرور أصاب بوارو! وجادلته قائلاً:
وماذا عن التحقيق؟ أظنك تستطيع أن توضح الصورة تماماً
وتخبر الشرطة بأوصاف رقم «٤» كاملة، أليس كذلك؟

- لن نحقق فائدة ولن نعرف شيئاً، ولا يُهمّني ذكر
أوصاف رقم «٤». لن نستطيع أن نغير قرار هيئة المحلفين
الحكماء الذين سيسجلون أن موت الرجل عارض، وربما
نفسح لمجرمنا الذكي أن يقول بفخر إنه استطاع هزيمة بوارو
في الجولة الأولى.

* * *

وهكذا صدقت نبوءات بوارو، فقد كان ذا بصيرة بلا
شك! لم نرَ قيمّ المصحة العقلية مرة أخرى، ولم يستتج
التحقيق شيئاً ذا قيمة ولا أثار اهتمام الناس، وإن كنت قد

قدّمت إفادتي في القضية. وهكذا ذهبت طيّ النسيان.

بعد نحو أسبوع شعرتُ بالسرور حين تفضل عليّ بوارو يسألني إن كنت أرغب بمرافقته في زيارة اعترم القيام بها، وسألته عن مكانها لكنه لم يُجبني، فهكذا هو بوارو: يحب الغموض والكتمان ولا يكشف أسراره حتى النهاية.

شعرت أنه مخطئٌ إذ يسعى إلى الحل وحده بلا مساعدة، وجدالته في هذا الأمر لكن بلا فائدة. رحنا ننتقل من حافلة إلى أخرى ثم أفلنا القطار إلى إحدى ضواحي لندن الكثبية، وما زالت الهواجس تتتابني وذهني يشرد من أمر إلى أمر ومن فكرة إلى أختها.

ثم تكلم بوارو أخيراً فقال: نحن ذاهبان يا هيستنغز لنقابل ذلك الرجل الوحيد في إنكلترا الذي يعرف كثيراً من دقائق وأسرار الحياة في الصين.

- عجباً، ومن هو؟

- لعلك لم تسمع به من قبل. إنه موظف مدني متقاعد ذو ذكاء حاد، بيته مليء بالتحف الصينية التي يضجر منها أصدقاؤه وزوّاره، وقد أكد لي العارفون أنني لن أجد سواه لمساعدتي فيما أبحث عنه. إنه السيد جون إنغليز.

كنا بعد قليل على عتبة «بيت الأكاليل»، وهو بيت السيد إنغليز، وسألتُ نفسي عن سر هذه التسمية المبهمة لأنني لم أرَ

شجرة إكليل في الجوار.

وقف عند المدخل فتى صيني بوجه ذي ملامح جامدة،
وسمح لنا بالدخول ثم قادنا إلى غرفة المجلس حيث كان
سيّده. كان رجلاً قصيراً ماكر الشكل ذا عينين غائرتين تدلان
على شخصيته. وقد نهض يرحّب بنا وفي يده رسالة مفتوحة،
قال: هلاًّ جلستما؟ لقد أخبرني هاسلي في رسالته أنك تبحث
عن بعض المعلومات.

- نعم يا سيدي، لقد جئتُ ألتمس بعض المعلومات عن
شخص اسمه لي شانغ ين.

- وكيف سمعت بهذا الرجل؟

- أنت تعرفه إذن؟

- قابلته مرة واحدة وأعرف عنه القليل، ليس القدر
المطلوب، لكنني أشعر بالمفاجأة لأن رجلاً آخر في إنكلترا
سمع بشانغ ين. إنه رجل عظيم الشأن، من طبقة الماندارين...
أنت تعلم. لكن النقطة المهمة ليست هذه، بل إن عندي سبباً
مُقنعاً يدل على أنه الرجل الذي يقف وراء كل ذلك.

- وراء ماذا؟

- وراء كل شيء: القلاقل والمصاعب العمالية في أنحاء
العالم والثورات التي تتأجج هنا وهناك. إن الذين يعرفون
الحقيقة ويستطيعون قولها قلة من الناس، وهم يقولون إن وراء

الأحداث قوة خفية تسعى لتحطيم الحضارة. صدّقني إن لينين وتروتسكي في روسيا ما هما سوى دميّتين تتحرّكان بفعل قوة خفية مسيطرة ودماغ مستتر. لا أملك الدليل، إلا أنني مقتنع تماماً بأن الدماغ المسيطر هو لي شانغ ين.

- آه، ما هذا؟ إنه خيال! كيف يستطيع رجل صيني أن يسيطر على الحوادث في روسيا؟

قلتُ هذه الكلمة معارضاً، فعبس بوارو في وجهي وقال: يبدو لك الأمر بعيد الاحتمال عندما يأتي مخالفاً لما هو مألوف في خيالك، أما أنا فإنني أتفق مع ما يقوله هذا السيد. أكمل يا سيدي، أرجوك.

- لا أستطيع أن أجزم بحقيقة ما يسعى إليه هذا الرجل بدقّة. لعله مرض العقول الكبيرة الذي يصيب العظماء منذ عصر الإسكندر الأكبر حتى عصر نابليون بونابرت والعصر الحديث، التّوق الشديد إلى السلطة والرغبة في التّفوق والعلو بالقوة. أما في هذا القرن، قرن الثورات والقلقلّة، فإن رجلاً مثل لي شانغ ين يملك وسائل أخرى. عندي الدليل على أن بين يديه أموالاً طائلة يشتري بها الضمائر، وأدلة أخرى تشير إلى امتلاكه قوة علمية مذهلة لا تملك مثيلاً لها دولٌ كبيرة في هذا العالم!

سأل بوارو الذي كان يصغي بانتباه شديد وبقطة تامة: وفي الصين، هل يملك الحركة والأثر أيضاً؟

هز إنغليز رأسه قائلاً: نعم، قد لا أستطيع أن أقدم دليلاً

يقنع المحلفين في المحكمة، لكن لديّ علماً أكيداً بأن كثيراً من أولئك الرجال الكبار الذين يعظمهم الناس هم -في الحقيقة- دُمى ترقص إذا سحبتْ خيوطها يدٌ خفية تحركها، وهي يد لي شانغ ين، الدماغ المهيمن على الشرق كله. نحن لا نفهم الشرق ولن نفهمه، لكنني أفهم أن لي شانغ ين هو روحه المحركة، رغم أنه لا يظهر للناس ولا يستطيعون رؤيته، فهو لا يخرج من قصره في بكين وتمتد خيوطه في كل مكان. هذا هو جوهر المسألة، ثم تجري الأحداث بعيداً جداً.

قال بوارو: ولا يعارضه أحد؟

اعتدل إنغليز في جلسته، ثم مال على بوارو ودنا منه وتكلم بصوت خافت وكأنه يفشي سراً: أربعة رجال حاولوا معارضته في السنين الأربع الأخيرة، رجال أذكىء مفكرون وعلى خلق متين وأمانة ومسؤولية، وكلما عارضه واحد منهم سكت إلى الأبد!

سألته: ثم ماذا يكون؟

- لا ترى منهم أحداً! لقد كتب أحدهم مقالاً يذكر فيه اسم شانغ ين مقروناً بحوادث الشغب في بكين، فُعثر عليه بعد يومين مطعوناً في الشارع ولم يُقبض على قاتله. جريمة الثلاثة الآخرين كانت هي نفسها: مقالة أو خطبة أو حديث، وفي غضون أسبوع ترى أحدهم فارق الحياة. أحدهم مات مسموماً، والثاني مات بوباء غامض، والثالث وُجد مقتولاً في سريره دون

أي أثر يدل على سبب موته، إلا أن الطبيب الذي فحص الجثة أخبرني أنه رآها وقد احترقت بصورة عجيبة وكأنها تعرضت لتيار قوي من الكهرباء!

قال بوارو: ربما لا ترى علامة على العلاقة بين مصرعه ولي شانغ ين، لكن لا بد من إشارات.

- «علامة»؟ نعم، نعم، بالتأكيد. لقد لقيت مرة شاباً صينياً متوقد الذكاء مختصاً بالكيمياء كان يعمل لحساب شانغ ين، وأراد أن يحدثني - بالتلميح - عن تجاربه التي كان يجريها في القصر على الحمالين، وقال وهو على حافة الانهيار العصبي إنه عمل مقرف يزدري الحياة الإنسانية! ثم أصابه رعب كاد يقتله حتى كاد يُغمى عليه. كانت حاله تثير الشفقة، ونقلته إلى السرير في الغرفة العلوية ليحدثني في الليلة التالية، لكن فعلتي تلك كانت عملاً غيباً أحمق.

- كيف وصلوا إليه؟

- هذا ما لم أعرفه. صحت تلك الليلة والنار تاكل منزلي، وكنت محظوظاً بالفرار أنا وزوجتي، ثم تبين من التحقيق أن ناراً عظيمة اندلعت في الطابق الأعلى فجعلت عظام صديقي الشاب رماداً!

تخيلت إنغليز وهو يتكلم بنجد وحماسة كأنه على حصان من حجر وييده سيف من خشب وقد غرق في لجة العاطفة! وحين نظر إليّ أدرك أنه مندفع بحماسته، فضحك يعتذر قائلاً:

نعم، ليس عندي دليل، وأحسب أنك -مثل غيرك- تقول إن كلامي مجرد أوهام وأحلام.

قال بوارو بهدوء: لا، بل على العكس؛ إن لديّ كل الأسباب لأصدق قصتك، فأنا نفسي مهتم بلي شانغ ين غاية الاهتمام.

- ما كنت أتوقع أن أجد من سمع باسمه بين الأحياء في إنكلترا، لذلك أجد نفسي مدفوعاً لسؤالك: كيف عرفت عنه لو سمحت؟

- لقد لجأ إلى منزلي رجل مصاب بصدمة عصبية حادة، وكانت حالته النفسية والبدنية سيئة، لكنه استطاع أن يخبرنا شيئاً مثيراً حول منظمة غريبة تُدعى: «الأربعة الكبار» يرأسها لي شانغ ين وهو عقلها المدبر، والثاني رجل أمريكي، والثالث امرأة فرنسية، والرابع لقبه «المدمر». لكن الرجل الذي أخبرنا بهذا كله مات، فهلاً أخبرتني عن منظمة الأربعة الكبار يا سيدي؟ هل سمعت بهذا الاسم من قبل؟

- سمعت بها أخيراً، لكن ليس بصفة ارتباطها بلي شانغ ين. في الواقع أنا لا أعرف عن هذه المنظمة الكثير. آه، تذكرت.

نهض واقفاً فاتجه سريعاً إلى خزانة عتيقة في زاوية الغرفة، ثم عاد وهو يحمل رسالة مفتوحة. قال: هذه رسالة من ملاح عجوز قابلته مرة في شانغهاي، رجل اشتعل رأسه شيباً ويمضي معظم وقته ثملاً، فحملت الرسالة على أنها هذيان رجل فاقد

الرشد ليس غير.

قرأها بصوت عال، وقد جاء فيها:

سيدي العزيز،

ربما لا تذكرني، لكنك أسديت لي في شانغهاي
معروفاً ذات مرة، وأنا الآن أطلب منك معروفاً
آخر. إنني في أشد الحاجة إلى قدر من المال حتى
أستطيع الخروج من هنا. أنا مختبئٌ تماماً لكنهم قد
يصلون إليّ في أي يوم، أقصد الأربعة الكبار.

إنها مسألة مهمة خطيرة، مسألة حياة أو موت.
عندي مال كثير لكن يصعب عليّ الآن السعي إليه
مخافة أن يعرفوا مخبئي. أرسل لي ورقتين من فئة
المئة جنية وسوف أردّهما إليك، أقسم يا سيدي.

جوناثان والي

قال إنغليز: أرسلت هذه الرسالة من منزل «غرانيت بنغالو»
في هوباتون في دارتمور. لقد خشيتُ أنها حيلة سخيفة لسلب
أموالي التي جمعتها بصعوبة، فإذا كانت هذه الرسالة تنفك
بشيء فأرسل له مئتي جنية.

- شكراً لك يا سيدي، سوف أنطلق الآن إلى هوباتون.

- وهل تمنع في أن أرافك؟

- سأكون مسروراً بصحبتك. هيا، يجب أن نذهب من

فورنا، فلن نصل دارتمور قبل ظلمة الليل.

بعد قائق قليلة كان جون إنغليز مستعداً، وبعد وقت قصير كنا ثلاثتنا في القطار الذي ينطلق من حدود بادنغتون نحو الريف الغربي.

هوباتون قرية صغيرة تقع على أرض سبخة في غور منخفض، وتبعد تسعة أميال عن مورتون هامستيد. كانت الساعة حين وصلنا الثامنة مساءً، لكن ضوء النهار كان ما يزال باقياً فوق المكان. اتجهت السيارة عبر الشارع الضيق في القرية، ثم توقفنا عند عجوز ينتظر على قارعة الطريق فسألناه عن البيت المذكور، فقال الرجل العجوز متأملاً: غرانيت بنغالو... هل تريدون غرانيت بنغالو؟

ثم هزّ رأسه كأنما ذكر شيئاً، وأشار نحو كوخ رمادي حقيق منقطع في آخر الطريق قائلاً: هناك البنغالو، هل تريدون رؤية المفتش؟

قال بوارو بدهشة: أي مفتش؟ ماذا حدث؟

- إذن فأنتم لم تسمعوا عن جريمة القتل؟ لقد كانت مروعة... حماماً من الدم كما قالوا.

تمتم بوارو: يجب أن أقابل هذا المفتش.

مضت خمس دقائق قبل أن نجد المفتش الذي لم يكن يرغب بالحديث معنا وبدا متردداً كتوماً، حتى إذا ذكرنا له اسم

جاب، مفتش سكتلنديارد المشهور، تغير أسلوبه وصار لطيفاً. قال: نعم يا سيدي، لقد قُتل الرجل صباح اليوم. إنها جريمة في منتهى البشاعة، والحادث غامض من أوله، فعندما وصلت إلى موقع الجريمة -إثر مكالمة هاتفية وأنا في مورتون- وجدت عجوزاً في السبعين من عمره ممدوداً على الأرض في غرفة المعيشة وفي أعلى رأسه أثر كدمة عنيفة، وقد دُبح من الأذن إلى الأذن، والدم ملء المكان وقد اختفت التماثيل الصينية من البيت. ربما كان في ذلك إشارة إلى سطو، لكن هذا الظن يبدو غير مرجح لعدة أسباب، فالبيت فيه خادمان: بتسي أندروز، وهي امرأة من هوباتون، ورجل فظّ يُدعى روبرت غرانت.

سكت المفتش قليلاً ثم مضى يقول: خرجت أندروز لتثرثر مع جاراتها، في حين ذهب غرانت كعادته كل صباح إلى المزرعة لكي يجلب الحليب، وعندما رجع دخل من باب البيت الخلفي فرأى الأبواب مفتوحة، ثم وضع الحليب ومضى يقرأ الصحيفة في غرفته ويدخن، ولم يكن على علم بأي شيء بزعمه. أما بتسي فدخلت غرفة المعيشة فصرخت صرخة مريعة توقظ الأموات... هكذا قال غرانت.

شخص ما دخل البيت وهما خارجه وقتل العجوز المسكين! لا بد أن يكون لصاً وقحاً قدم من القرية ثم تسلل من إحدى النوافذ، هذا ظني. لكن البيوت محيطة بكل أنحاء «غرانيت بنغالو» كما ترى، وكل من مرّ بها كان سيُرى حتماً، ولا سيما الغريب.

ثم سكت المفتش بحركة درامية فقال بوارو: فهمت،
أكمل.

- حسناً يا سيدي، هذه المسألة تثير الشك. لقد لفت انتباهي وأثار شكّي اختفاء التماثيل الثمينة، فلن يدرك قيمتها متسكعٌ جاهل. وفي كل الأحوال فإن ارتكاب الجريمة في وضوح النهار مغامرة مجنونة، ألم يخشَ المجرم أن يستغيث العجوز بالصراخ؟

قال إنغليز: أظن أن الكدمة التي ظهرت في رأسه كانت قبل الوفاة أيها المفتش؟

- هذا صحيح تماماً يا سيدي، ضربة شرسة على الرأس، ثم أتى على حنجرتَه فقطعها من الوريد إلى الوريد. لكن عجباً، كيف جاء؟ وكيف ذهب؟ أظنّ أن أحداً لم يأت من الخارج، فقد نظرت في المكان وفحصته بدقة. كانت ليلة أمس ليلة ماطرة، ورأيت آثار أقدام راحت وجاءت من المطبخ، وفحصت الأثر في غرفة المعيشة: أثر قدم بتسي و قدم والي في حذاء من القماش و قدم رجل آخر.

لقد مشى ذاك الرجل فوق بقع الدم. وتعقبت تلك الآثار الدموية فرأيت واحدة على عتبة باب روبرت غرانت، ورأيت لطحه باهتة من الدم في الغرفة، ثم أمسكت حذاء غرانت وطابقته مع الأثر فرأيتُه منطبقاً فعرفت أن القاتل كان فعلاً من الداخل. وقد اعتقل غرانت من أجل التحقيق، وكان يتجهز

للسفر، فهل تدري ماذا وجدت في حقيبته المحزومة؟ لقد وجدت فيها التماثيل الثمينة وتذكرة سفر. كان روبرت غرانت هو أبراهام بيغز الذي اعتُقل بجريمة سابقة واقتحام منزل قبل خمس سنين!

أخيراً نظر المفتش إلينا نظرة فخر قائلاً: فماذا ترون الآن أيها السادة؟

قال بوارو: إن حل القضية بهذه البساطة يثير الدهشة. إن بيغز أو غرانت هذا أحمق، ويبدو أنه غير متعلم، أليس كذلك؟
- بلى، هو كذلك، فظّ غليظ القلب وأُمّي لا يعرف ما معنى أثر القدم.

- من الواضح أنه لا يدرك خيال رجل التحري. حسناً، أهتكت أيها المفتش، لكننا نودّ لو نرى مسرح الجريمة.

- سنذهب معاً، يمكننا أن نشاهدوا آثار الأقدام.

- هذا ما أريد أن أراه بعيني، نعم.

انطلقنا خلف المفتش الذي كان يعدو أمامنا بخفة ونشاط، ثم جذبت بوارو إليّ قليلاً لأهمس في أذنه من غير أن يسمعني المفتش: ماذا تتوقع يا بوارو؟ هل في الأمر شيء آخر؟

- نعم يا صديقي. لقد أخبرنا السيد والي صراحة أن الأربعة الكبار يتعقبونه، فإن كان غرانت قد فعلها فلماذا؟ من أجل تمثال صغير؟ أم هو جندي للأربعة؟ وهذا ما أظنه. هل

كان غرانت يفهم قيمة هذه التماثيل؟ ألم يكن بوسعه أن يسرقها ويهرب من غير أن يُقدم على فعلته المرّوعة هذه؟ أخشى أن صاحبنا المفتش لم يشغلّ خلاياه الرمادية؛ لقد اكتفى بفحص آثار الأقدام وغفل عن التفكير العميق.

* * *

الفصل الرابع لحم الضأن مهم

أخرج المفتش مفتاحاً من جيبه وفتح باب «غرانيت بنغالو»، ومسحنا أقدامنا تماماً قبل الدخول. ثم أقبلت امرأة من بيت الجيران وكلمت المفتش، فهز رأسه ثم قال: افحص المكان وابحث فيه كما تشاء يا سيد بوارو، وسأعود خلال عشر دقائق. هذا هو حذاء غرانت، لقد حملته حتى تقارنه بآثار الأقدام.

دخلنا غرفة المعيشة وسمعت وقع أقدام المفتش وهو يبتعد خارجاً، واتجه إنغليز نحو بعض التحف الصينية يفحصها وقد أثارت اهتمامه، وبدا وكأنه نسي بوارو.

راقبتُ ما يفعله بوارو بصمت. كانت الأرض مغطاة بمشمع أخضر قاتم تظهر عليه آثار الأقدام بوضوح، وكان في الغرفة باب يؤدي إلى مطبخ صغير وباب آخر يؤدي إلى الحمام، وباب أيضاً إلى غرفة النوم التي تخص روبرت غرانت.

فحص بوارو بلاط الأرض ثم قال كأنما يخاطب نفسه:

هنا كانت الجثة ممدودة، فبقع الدم تحدّد المكان. آثار الحذاء القماشي وآثار أقدام أخرى... هذا عجيب! آثار أقدام تجيء وتروح من المطبخ، أياً كان القاتل فقد جاء حتماً من هذا الطريق. هيستنغز، أعطني الحذاء.

قارنه بعناية بآثار الأرض الواضحة ثم قال: نعم، إنهما متطابقان. روبرت غرانت دخل من هنا فقتل العجوز وعاد إلى المطبخ ومشى فوق الدم، هل ترى آثاراً من المطبخ؟ لا شيء له أهمية في المطبخ. هل ذهب إلى غرفته؟ لا، عاد مرة أخرى إلى مسرح الجريمة. هل كان هذا من أجل التماثيل أم أنه نسي شيئاً قد يُدينه؟

قلت: ربما قتل العجوز في المرة الثانية التي دخل فيها.

- لا؛ أنت لم تلاحظ ذلك الأثر الملطخ بالدم وفوقه أثر آخر. إنني أعجب... لماذا عاد؟ هل عاد من أجل التماثيل؟ كأن فكرة خطرت له من بعد. كل شيء يبدو غريباً.

- حسناً، إنه يفضح نفسه ييأس كبير.

- ليس كذلك، بل هو يجعل خلاياي الرمادية في حيرة!

- ماذا عن المرأة العجوز؟ كانت في البيت وحدها بعد أن خرج غرانت لإحضار الحليب، فلعلها قتلت ثم خرجت، أو أن قدميها لم تتركا أثراً لأنها لم تكن في الخارج.

- فكرت في هذه النظرية إلا أنني استبعدتها، فبتسي

آندروز امرأة محلية، إنها بنت القرية، فلا يُعقل أن تكون على صلة بالأربعة الكبار، ثم إن والي كان رجلاً قوياً، ناهيك عن أن هذا العمل من فعل رجل لا امرأة.

- أظن أن الأربعة الكبار لم يستعملوا وسيلة تختفي في السقف ثم تنزل بصورة آلية لتقطع حنجرة الرجل العجوز ثم تصعد إلى أعلى مرة أخرى ولا تترك أثراً!

- يبدو أن خيالك الواسع يقتبس أفكاره من القصص الخرافية يا هيستنغز! أتوسل إليك أن تبقي هذا الخيال ضمن الحدود المعقولة.

أغلقت فمي خجلاً، واستمر بوارو في التجول في المكان، يقتحم الغرف ويبعث بالخزائن ويقلب الأشياء، وقسمات وجهه تنطق بالحيرة وعدم الرضا. وفجأة أصدر صرخة مثيرة كصرخة كلب بولندي، فانطلقت إليه مذهولاً فوجدته في غرفة حفظ الأطعمة في مشهد درامي ويده تمسك فخذاً من لحم الضأن وهو يلوح بها!

صرخت بعطف: عزيزي بوارو، ماذا دهاك؟

- أرجوك انظر إلى قطعة اللحم هذه، انظر إليها عن قرب.

نظرت إليها بإمعان وقد اقتربت منها، إلا أنني لم أرَ فيها شيئاً غريباً. قلت: إنها قطعة من اللحم كغيرها، كل ما فيها مثل سواها.

قلت له ذلك وأنا في غاية الحيرة من هذا الموقف، فسألني

باهتمام: ولكن ألا ترى؟

كانت يده تعبت بالثلج المتراكم عليها. لقد اتهمني بوارو بسعة الخيال، لكن خيالي عجز عن تفسير سبب احتياجه. هل كان الثلج مخلوطاً بسم قاتل؟ هذا هو الاحتمال الذي وصلت إليه بعد جهد، لكنني لم أجروء على البوح بما في صدري فقلت بلطف: هذا لحم مجمد مستورد من نيوزيلندا.

انفجر بوارو بضحكة غريبة تنم عن السخرية ثم قال: كم هو رائع صديقي هيستنغز، واسع الاطلاع ويكاد يعرف كل شيء!

قالها ثم أعاد لحم الضأن إلى طبقه وخرج، فأطل من النافذة ثم قال: ها هو المفتش، لقد رأيت كل ما أريده.

ثم ضرب بقبضة يده على الطاولة وهو شارد الذهن وسألني: ما اليوم يا صديقي؟

- الإثنين.

- الإثنين، نعم. في هذا اليوم ارتكبت جريمة قتل مروعة.

وحدق إلى ميزان الحرارة ثم قال: الجو معتدل، هذا يوم إنكليزي صيفي.

كان إنغليز منكباً على قطع الفخار الصيني المختلفة يتفحصها وكأن الأمر لا يعنيه، فخاطبه بوارو قائلاً: كأنك غير مهتم بهذا التحقيق يا سيدي؟

تبسم إنغليز وقال: إنه ليس من شأني. أنا خبير في أمور أخرى، وحسبي أن أفق بعيداً في الخلف. لقد تعلمت في الشرق أن أصبر.

دخل المفتش مسرعاً وهو يعتذر، فخرجنا إلى شارع القرية معاً، وقال بوارو: إنني أقدر فيك لطف المعاملة ودماثة الخلق، ولكن لي مطلباً عندك.

- ربما تريد رؤية الجثة يا سيدي؟

- آه، لا، فليس لي بالجثة أدنى اهتمام. إنني أرغب في مقابلة روبرت غرانت.

- في هذه الحالة علينا أن نعود إلى مورتون لتراه هناك يا سيدي.

- حسناً، لنفعل ذلك إذن. لكنني أريد لقاءه والحديث معه على انفراد.

- لا أستطيع أن أعد بذلك يا سيدي.

- تأكد أنك إذا اتصلت بإدارة سكتلنديارد فسوف تجد الجواب بالموافقة.

- قطعاً، لقد عرفناك يا سيدي وعرفنا خدماتك الجليلة، لكن هذا مخالف للقانون.

- لكنه ضروري، ضروري جداً لهذا السبب، لأن غرانت

ليس هو القاتل.

هتف المفتش مذهولاً: ماذا؟! فَمَنْ إذن؟

- أظن أن القاتل كان رجلاً يافعاً وصل إلى بيت غرانيت بنغالو يجزّ عربته، ثم تركها في الساحة ودخل فقتله، ثم خرج إلى عربته وانطلق عائداً، وكان حاسر الرأس وثيابه ملطخة بالدماء قليلاً.

- لكن، لكن كل القرية سوف تراه!

- ليس في ظروف معينة.

- ربما في الظلام، لكن الجريمة تمّت في وضوح النهار يا سيدي.

اكتفى بوارو بابتسامة خفيفة.

- والحصان والعربة يا سيدي... لا أدري ما هذا الذي تقول، فلم تمرّ على الطريق عربات ذات عجلات ونحن لم نرَ أي أثر لذلك.

- ربما لم تستطع عيون الناس رؤيتها، لكن عين العقل تستطيع، نعم.

لم يُبدِ المفتش قناعة بهذا القول. مسح جبهته بيده ونظر إليّ وهو يبتسم ابتسامة عريضة. وكنت حائراً مثله، لكنني كنت على ثقة تامة بقدره بوارو فلم أستطع الحديث.

استمرّ النقاش في المسألة حتى وصلنا إلى مورتون،
وذهبتنا لرؤية غرانت ومعنا شرطي، وهناك تكلم بوارو في
الأمر صراحة قائلاً: أنا أعرف أنك بريء من هذه الجريمة يا
غرانت، فاسرّد عليّ الحكاية كلها.

كان السجين رجلاً متوسط الطول ذا ملامح تدعو إلى
النفور ولا تبعث الطمأنينة، وبدا كأنه رجل يألّف السجون.
انتحب وقال: أقسم أنني لم أفعل ذلك أبداً... شخص ما وضع
هذه التماثيل في حقيبتني، لقد كانت مكيدة. والذي حدث
أنني ذهبت مباشرة إلى غرفتي عندما دخلت إلى البيت، وما
كنت أعلم شيئاً حتى صرخت بيتسي. ساعدني يا رب، فإنني
لم أفعلها!

نهض بوارو وكأنه يريد المغادرة وقال: إن لم تستطع أن
تقول الحقيقة كاملة فإن هذه هي النهاية.

- ولكن...

- لقد ذهبت إلى الغرفة حقاً، لكنك كنت تعرف أن
سيدك كان ميتاً وكنت تستعد للفرار حين عرفت بيتسي الطيبة
بأمر الجريمة المرعبة.

حدق الرجل إلى وجه بوارو بذهول كامل، فقال بوارو:
أليس هذا هو ما حصل فعلاً؟ حسناً، سأقول لك كلمة أخيرة:
هذه هي فرصتك الأخيرة إن كنت صادقاً معي.

- سأعترف بالحقيقة. لقد كان الأمر كما قلت أنت تماماً:

دخلت وذهبت مباشرة إلى السيد فوجدته ميتاً على الأرض
والدماء حوله، ثم خطر ببالي أنهم سيكتشفون ماضيّ ويقولون
حتماً بأنها من فعلي قبل أن يعرفوا الجاني.

- وماذا عن التماثيل؟

تردد الرجل: أنت ترى...

- لقد أخذتها بدافع الغريزة، أليس كذلك؟ سمعتَ سيدك
يقول إنها قيّمة وأردت أن تأخذ أكثر من حَقِّك. أفهم ذلك.
والآن أجبني عن هذا السؤال: هل سرقته في المرة الثانية التي
دخلت فيها الغرفة؟

- لم أذهب مرة ثانية، مرة واحدة فقط.

- هل أنت متأكد؟

- نعم، متأكد بلا ريب يا سيدي.

- حسناً، متى خرجت من السجن؟

- قبل شهرين.

- كيف تدبرت هذا العمل؟

- عن طريق إحدى جمعيات مساعدة السجناء، فقد
قابلني أحد رجالها حين خرجت.

- ماذا كان شكله؟

- ليس قسيساً، لكنه بدا كذلك. كان ذا قلنسوة سوداء

ناعمة وطريقته في المشي مبالغاً، له سن مكسور ويضع نظارة على عينيه، وكان يسمي نفسه سوندرز. قال لي: "آمل أن تكون نادماً، وقد وجدت لك عملاً مناسباً". ثم ذهبت إلى والي العجوز بتوصية منه.

- شكراً، الآن فهمت كل شيء. اصبر قليلاً.

وخطا خطوة إلى الأمام، ثم التفت قائلاً بشكل مباغت: إن سوندرز كان قد أعطاك حذاء، أليس كذلك؟

ارتعد غرانت من المفاجأة وهتف: يا إلهي! بلى، لقد أعطاني حذاء. ولكن كيف عرفت؟

- هذه هي مهنتي، كشف الخفايا.

بعد حديث قصير مع المفتش ذهبنا ثلاثتنا إلى مطعم وايت هارت حيث تناولنا وجبة دسمة من البيض واللحم، وبعدها سأل إنغليز بوارو وهو يبتسم: ما هي الاستنتاجات النهائية؟

- إن القضية واضحة تماماً، لكن يصعب إثباتها. «الأربعة الكبار» هم الذين قتلوا والي وليس غرانت. في القضية رجل ذكي استطاع أن يدبر عملاً لغرانت لكي يجعله كبش فداء ويصبح الأمر سهلاً بسبب سجل غرانت الإجرامي، وكان لدى هذا الرجل حذاءان متطابقان أعطى غرانت واحداً منهما واستبقى الآخر لنفسه. الذي حدث هو أن غرانت خرج من البيت كعادته وخرجت بيتسي تثرثر في القرية، وربما كانت

تصنع ذلك دائماً، ثم جاء صاحبنا وفي رجله الحذاء المطابق
فدخل المطبخ وعبره إلى غرفة المعيشة حيث أسقط الرجل
العجوز بضربة قاسية ثم عمد إلى حنجرته فقطعها، ثم عاد
إلى المطبخ فخلع الحذاء وانتعل حذاء آخر وركب عربته آمناً
ومضى.

نظر إنغليز إلى بوارو نظرة تساؤل وقال: لا يزال عندنا
سؤال بلا جواب. لماذا لم يره أحد؟

- هنا يكمن ذكاء رقم «٤». كل الناس رأوه، تأكد من
ذلك، لكنهم أقسموا أنهم لم يروا أحداً لأنه كان يقود عربة
الجزار.

صاح إنغليز وقد استحسّن هذا الرأي: هذا العبقري الشرير
اللعين!

- نعم، إنه الذكي رقم «٤».

همست: ذكي مثل هيركيول بوارو؟

رمقني بنظرة قاسية وقال: تبدو هذه منك كلمات ساحرة
يا هيستغز. ألم أنقذ رجلاً؟ إن هذا يكفي ليوم واحد!

* * *

الفصل الخامس

اختفاء عالم

عندما برأ المحلفون روبرت غرانت من جريمة قتل جوناثان والي كان ذلك مخالفاً لظنون المفتش ميدوز الذي لم يكن مقتنعاً ببراءته، فهو صاحب سجل إجرامي والتماثيل وُجدت في حقييته وحذاؤه جاء مطابقاً للآثار التي خلفتها قدما الجاني، كل هذا -في الحقيقة- كان يدعو إلى قلق المفتش الكبير.

لكن بوارو استطاع إقناع المحلفين بعد أن فرض بقوة شهادته ضد رغبة المفتش، فقد قدّم شاهدين شاهداً عربية الجزائر وهي تمشي نحو بيت البنغالو صباح ذاك الإثنين الذي تمّت فيه الجريمة، ولدى استجواب الجزائر اعترف بأن عربته تذهب هناك يومي الأربعاء والجمعة فقط. واعترفت إحدى نساء القرية بأنها رأّت الجزائر وهو يغادر البنغالو، وهي لم تستطع أن تقدّم وصفاً مفيداً له، لكنها ما زالت تذكر شيئاً علق في ذهنها: أنه رجل متوسط الطول حليق اللحية ويشبه الجزائر تماماً.

قال لي بوارو بعد المحاكمة: تماماً كما أخبرتك يا هيستنغز، إن هذا الرجل فنان لا يخفي شخصيته بلحية مزيفة ونظارة سوداء فحسب، فهذا أقل دور يتبعه الرجل المحترف، بل يستطيع أن يعيش متقمصاً دوره بإتقان وعناية. على أي حال فإننا نتقدم يوماً بعد يوم.

حاولت أن أجادل بوارو، لكنه لم يعترف بأننا لم نكسب شيئاً على الإطلاق، وأصرّ قائلاً: بل نحن نتقدم يوماً بعد يوم، وكلما احتكنا بهذا الرجل تعلمنا شيئاً جديداً من أسلوبه وتفكيره، أما هو فلا يعرف عنا ولا عن خطتنا شيئاً.

قلت أعارضه: بصراحة لا يبدو أن عندك خطة؛ كل ما في الأمر أنك تجلس وتنتظره حتى يقوم هو بالعمل.

ابتسم بوارو بهدوء وقال: يا صديقي، لن تتغير يا هيستنغز!

لكنه سمع في تلك اللحظة طرقةً على الباب فقال: ربما تكون هي فرصتك، لعله صاحبنا المنتظر.

ضحك بوارو من خيبة أمني عندما دخل المفتش جاب ومعه رجل، قال المفتش: مساء الخير يا سيد بوارو، اسمح لي أن أعرفك بالكابتن كنت، رجل الاستخبارات السرية الأمريكية.

كان الكابتن كنت طويلاً نحيلاً، له وجه ذو ملامح جامدة كأنه نُحِت من الخشب. وقال وهو يصفحنا بقوة: تسرني رؤيتكما أيها السيدان.

أضاف بوارو قليلاً من الحطب إلى الموقد المشتعل

وأحضر كراسيَّ أخرى أكثر راحة، فيما ذهبت أنا لأعدّ القهوة لتقديمها للضيوف.

قال الكابتن بعد أن رشف رشفة عميقة من القهوة: إن ميزة القانون عندكم هي الثبات والاستقرار، فهو لم يتغير منذ فترة طويلة.

قال جاب: والآن إلى العمل أيها السادة. لقد طلب مني السيد بوارو أن أخبره -في أي وقت- إذا ذُكر اسم «الأربعة الكبار» في عملي الرسمي. ولم أهتم كثيراً بهذا الأمر في البداية، ثم تذكرته حين جاءني الكابتن كنت وقصص عليّ قصة غامضة تثير التساؤل، فقررت عندها أن تأتي سريعاً لمقابلة بوارو.

نظر بوارو إلى الكابتن الأمريكي بإمعان عندما بدأ يسرد القصة: لعلك تتذكر -يا سيد بوارو- أن عدداً من المدمرات وقوارب الطوربيد غرقت في البحر إثر اندفاعها الغريب ناحية الساحل الصخري على شواطئ أمريكا، وكان ذلك عقب الزلزال الياباني تماماً. كان التفسير الشائع لتلك الكارثة يومئذ هو أنها وقعت نتيجة لموجة بحرية شديدة أعقبت ذلك الزلزال الرهيب، ولكن قبل وقت قصير اعتُقلت شِرذمة من المحتالين والقراصنة وضُبطت في حوزتهم بعض الوثائق التي أدت إلى فتح ملف القضية مرة أخرى، وأخذت المسألة بعداً آخر أظهر أن الوثائق تخص منظمة سرية اسمها «الأربعة الكبار».

لقد احتوت تلك الوثائق وصفاً مختصراً لبعض المنشآت اللاسلكية التي تعمل من أجل تركيز قوة مغنطيسية هائلة على

بُعد كبير، وهي قادرة على تركيز إشارة لاسلكية ذات تردد شديد فوق منطقة ما. لقد بدت هذه المزاعم حول إنجاز كهذا أقرب إلى الخيال، لكنني حولتها إلى القيادة من أجل الاطلاع والدراسة، ثم تولى الأمر عالمٌ أمريكي كبير لدراسته وكشف حقيقته. وينبغي أن أخبركم أن أحد علمائكم الإنكليز كان قد ألقى بحثاً عن هذا الابتكار أمام الجمعية العلمية البريطانية، ولم يقدر زملاؤه خطر هذا الأمر حق التقدير وكانوا جميعاً على رأي واحد: إنه خيال محض. لكن هذا العالم ظل عُرضةً للهجوم والملاحقة، لا سيما حين أعلن أنه يوشك أن ينجح.

قال بوارو باهتمام بالغ: حسناً، أكمل يا كابتن.

- ثم طُلب مني أن أزور إنكلترا من أجل مقابلة هذا العالم (واسمه هاليدي) صاحب الخبرة الغزيرة في هذه المسألة لكي أفهم منه كيف يمكنه تطبيق نظريته بصورة عملية.

سألته بلهفة: وهل نجحت في مهمتك؟

- لا، لم أستطع رؤية هاليدي، وأظن أنني لن أراه كما يقول الناس!

قال جاب معلّقاً: حقيقة المسألة أن هاليدي اختفى في ظرف غامض.

- متى؟

- قبل شهرين.

- وهل وصل الخبر إلى الشرطة؟

- حتماً. لقد أقبلت زوجته علينا وهي في اضطراب وقلق شديد، وبذلنا كل ما في وسعنا، لكنني كنت أعلم أن ذلك عديم الجدوى.

- عديم الجدوى؟ لماذا؟

طرفت عينا جاب قبل أن يتكلم: عديم الجدوى عندما يختفي رجل بهذه الطريقة.

- أي طريقة؟

- إنها باريس!

- هاليدي اختفى في باريس إذن؟

- نعم، ذهب إليها في مهمة علمية، هكذا أخبر زوجته. لكننا نفهم معنى اختفاء رجل في باريس، فإما أن يكون قد اعترضه قاطع طريق فأنتهى أمره، أو أنه اختفى بإرادته هو، وهذا يبدو أرجح، إذ يبدو أنه سئم الحياة في وطنه. كان هاليدي على خلاف مع زوجته قبل سفره، وهذا وضح الحكاية.

قال بوارو وعلى وجهه علامة الاستنكار: هذا عجيب!

كان الرجل الأمريكي ينظر إلى بوارو بشيء من الفضول، ثم تكلف في لهجته وهو يطرح سؤاله: هل لك أن نخبرنا من هم «الأربعة الكبار» يا سيدي؟

- إنها منظمة دولية زعيمها صيني يسمى رقم «١»، أما رقم «٢» فهو رجل أمريكي، ورقم «٣» امرأة فرنسية، أما رقم «٤» (أو المدمر) فهو رجل إنكليزي.

صفر كنت باستغراب وقال: امرأة فرنسية؟ وهاليدي اختفى في فرنسا! ربما كان بينهما علاقة. ما اسمها؟

- لا أدري، فأنا لا أعرف عنها شيئاً.

- لكنها نقطة جديدة بالملاحظة، أليس كذلك؟

هز بوارو رأسه موافقاً في حين كانت يده تمتد إلى الطاولة الصغيرة لتصف فناجين القهوة، على عادته الأسرة التي تعشق النظام والتنسيق.

سأله كنت: هل الأربعة الكبار من عمل الألمان؟ وهل لهذه المنظمة علاقة بغرق الزوارق؟

- الأربعة الكبار يعملون من أنفسهم ومن أجل صالحهم فقط أيها الكابتن، وهدفهم هو الهيمنة على العالم.

انفجر الأمريكي بضحكة صاحبة، ثم قطعها حين لمحت عيناه وجه بوارو صارماً جاداً، وقال له بوارو وهو يهز أصبعه في وجهه: أنت تضحك يا سيدي ولكنك لا تستعمل خلايا دماغك الرمادية! فكر بهؤلاء الذين أغرقوا مدّراتكم وقوارب الطوربيد فقط على سبيل اختبار قوتهم. نعم، الأمر كله ليس سوى اختبار لسلاحهم المغنطيسي الجديد.

قال جاب أخيراً على سبيل تلطيف الجو: والآن بعدما سمعتَ قصة الكابتن، هل أستطيع خدمتك بشيء يا سيد بوارو؟
- نعم، أريد عنوان السيدة هاليدي وتعريفاً موجزاً بها لو سمحت.

* * *

في صباح اليوم التالي كنا نبحث الخطى إلى شيتْ ويندلودج قرب قرية شوبهام، حيث كانت السيدة هاليدي في استقبالنا. كانت امرأة طويلة شقراء حادّة المزاج والحركة، ومعها طفلتها الصغيرة الجميلة التي كانت في الخامسة من عمرها.

قدم بوارو نفسه لها وأوضح سبب الزيارة، فقالت: آه، سيد بوارو؟ كم يسعدني مقدمك! أشكرك كثيراً. لقد سمعت عنك بالطبع، فأنت تختلف تماماً عن رجال سكتلنديارد الذين لا يُنصتون ولا يتفهّمون، وعن الشرطة الفرنسية التي تفوق الإنكليزية بالسوء. كلهم مقتنعون أن زوجي هرب مع امرأة غيري. إنه ظن كاذب سخيف، لقد كان همّ زوجي هو عمله المخبري، ونصف شجارنا كان من أجل ذلك، فهو يحفل بعمله ولا يحفل بي!

قال بوارو بهدوء: كذلك هم الرجال الإنكليز، انشغال في العمل أو الرياضة. إنهم يحملون الأمور بجِدّ كبير! والآن يا سيدتي: هلاً سردتِ عليّ القصة بشيء من التفصيل والدقة بقدر استطاعتك، مع كل ما تعرفينه عن ظروف الاختفاء لو استطعت؟

- نعم، ذهب زوجي إلى باريس يوم الخميس العشرين من تموز (يوليو)، وقد أراد مقابلة أشخاص لهم صلة بعمله، ومنهم السيدة أوليفيه.

هزّ بوارو رأسه حين سمع اسم عالمة الكيمياء الفرنسية الشهيرة التي فاقت شهرتها العلمية شهرةً مدام كوري، حتى قلّدتها الحكومة الفرنسية وساماً رفيعاً وصارت أبرز علماء فرنسا المعروفين.

مضت السيدة هالدي قائلة: وصل باريس في المساء وقصد من فوره فندق كاستيج ليون، وفي صباح اليوم التالي كان على موعد مع الخبير بورجونوا الذي وصل في وقته. كان سلوكه عادياً وبهيجاً ودار بينهما حديث جاد مهم، واتفقا على أن يذهب زوجي إلى مختبر الخبير في اليوم التالي لكي يطلع على تجاربه وإنجازاته.

بعد ذلك تناول الغداء في مطعم رويال وحده، ثم ذهب يتمشى في بوا، ثم زار السيدة أوليفيه في بيتها في باسي، وكان هناك طبيعياً تماماً. ثم غادر منزلها في السادسة مساء. ولم يعرف أحد أين أكل عشاءه، ربما في أحد المطاعم وحده. ثم وصل إلى الفندق في نحو الساعة الحادية عشرة، وبعد أن سأل إن كانت قد وصلته أي رسائل اتجه إلى غرفته. وفي صباح اليوم التالي خرج من الفندق ماشياً ولم يُشاهد بعدها!

- متى غادر الفندق؟ في الساعة المعتادة لكي يلتزم بموعده في مختبر الخبير بورجونوا؟

- لا نعرف على وجه الدقة، فلم يره أحدٌ وهو يغادر الفندق، لكنّ طعام الإفطار لم يقدّم له، مما يعني أنه خرج مبكراً.

- هل يُحتمل أن يكون قد خرج مرة أخرى في الليلة السابقة بعد عودته إلى الفندق؟

- لا أظن، فقد دلّ شكل سريره على أنه نام فيه، كما أن موظف الفندق لا بد أن يلاحظ أي شخص يخرج في تلك الساعة المتأخرة من الليل.

- إنها ملاحظة صحيحة يا سيدتي. حسناً، في هذه الحالة سنعتمد الرأي القائل أنه خرج مبكراً، وهذا يمنحنا الطمأنينة من جهة واحدة على الأقل: أنه لم يقع ضحية المحتالين واللصوص في باريس. لكن هل ترك خلفه أمتعته كلها؟

بدت السيدة هالدي وكأنها كرهت الجواب، لكنها قالت أخيراً: لا، ليس كلها، فقد أخذ معه حقيبة صغيرة.

استغرق بوارو في تفكير عميق، ثم قال: عجباً، أين كان في ذلك المساء؟ لو عرفنا جواب هذا السؤال لكشفنا أشياء كثيرة. من الذين قابلهم ذاك المساء؟ هنا يكمن حل اللغز. لن أحمل رأي الشرطة على محمل الجدّ، فنظريتهم التقليدية هي «ابحث عن المرأة!» ربما وقع في تلك الليلة أمر دفع زوجك إلى تغيير برنامجه. حسناً، عندما سألت عن الرسائل حال عودته إلى الفندق هل استلم رسالة؟

- واحدة فقط ، تلك التي كتبْتُها له يومَ سافر من إنكلترا.

استمر بوارو في تفكيره لحظات ، ثم نهض فجأة ووقف قائلاً: حسناً يا سيدتي ، السرّ في باريس ، ولكي نجد الحل لا بد من السفر إلى باريس . سأذهب أنا إلى هناك .

- لقد انقضى زمن طويل منذ تلك الحادثة يا سيد بوارو .

- نعم ، لكن ينبغي أن نبحث هناك .

مشى إلى الباب مغادراً ، وبعدها أمسك مقبض الباب التفت قائلاً: هل تذكرين يا سيدتي أن زوجك ذكر كلمة «الأربعة الكبار» في أي يوم من الأيام؟

- الأربعة الكبار؟ لا ، لا أذكر .

* * *

الفصل السادس

امرأة على الدرج

بدأنا رحلتنا باتجاه باريس في صباح اليوم التالي، وقال لي
بوارو بكآبة: الأربعة الكبار يدفعونني إلى العمل دفعاً، أصعد
وأنزل في كل مكان مثل صديقنا القديم صائد الثعالب!

كان يقصد جيروود، أكثر رجال الأمن شهرة في فرنسا،
الذي قابله أكثر من مرة. قلت: ربما تقابله في باريس؟

تجهم وجه بوارو وقال: أتمنى أن لا أفعل، فهذا الرجل
لا يحبني أبداً.

لكن مهمتك شاقة يا بوارو، فأنت تبحث عن رجل
إنكليزي مجهول مضى على اختفائه شهران.

- بالتأكيد يا صديقي، إنها مهمة صعبة جداً، لكن كما
تعرف جيداً فإن بوارو يهوى الصعاب ويستمتع بحلها.

- هل تظن أن الأربعة الكبار خطفوه؟

هزّ بوارو رأسه بالإيجاب.

كان علينا أن نزور الأماكن التي كان الرجل المختفي فيها ونراجع التحقيقات القديمة ونتأكد من المعلومات كلها، لكننا لم نحصل على أكثر ممّا أخبرتنا به السيدة هاليدي. والتقى بوارو بالخبير بورجونوا لقاء طويلاً على أمل معرفة أي شيء عن برنامج هاليدي لقضاء ذلك المساء المشؤوم، لكن بلا جدوى.

المحطة الثانية كانت السيدة أوليفيه.

كان المكان مثيراً، وشعرت بإحساس غريب يسيطر عليّ ونحن نصعد عتبات قصرها الجميل في باسي. وقد أدهشني أن تصل امرأة إلى هذه الدرجة العالية في العلوم البحتة، إذ كنت أظن أن هذا الميدان حكر على الرجال.

فتح البابَ خادمٌ فتّيّ لم يتجاوز السابعة عشرة، فتذكرت صورة مساعد الكاهن من طريقته وحركته التي تشبه الطقوس الدينية الكهنوتية! كان ذلك الموعد قد حُدد بعد جهد كبير لأن السيدة أوليفيه تكاد لا تستقبل أحداً، فهي في شغل دائم بأبحاثها وتجاربها طوال ساعات اليوم.

مشينا مع الخادم نحو صالة صغيرة، وبعد قليل جاءت السيدة أوليفيه لاستقبالنا. كانت طويلة فارعة الطول، وقد ارتدت رداء أبيض أصفى عليها بهاء ومهابة، وكانت تضع على رأسها ما يشبه قلنسوة الممرضات.

كان وجهها يميل إلى الطول وفيه شحوب مميز، وعيناها

سوداوين بنظرات ثاقبة تشتعل حدّة، وبدت عندئذ كأنها امرأة جاءت من أعماق التاريخ لا امرأة فرنسية عصرية. وكان في أحد خديّها أثر من جرح أو حرق، فتذكرت الحادثة التي تسببت في مقتل زوجها واثنين من العاملين معه إثر انفجار في مختبره قبل ثلاثة أعوام، وقد أُصيبت هي نفسها بحروق شديدة، ومنذ ذلك الحين اعتزلت الناس وانصرفت إلى أبحاثها العلمية بطاقة عجيبة وعزيمة ملتهبة.

كان استقبالها مؤدّباً وفاتراً بعض الفتور، ثم قالت بوقار: لقد قابلني رجال الشرطة مراراً أيها السيدان، ويبدو أنني لن أستطيع أن أقدم لكما المزيد من المساعدة لأنني لا أملك غير ما قدمته لهم من معلومات.

قال بوارو بدمائة: سيدة أوليفيه، ربما أسألك أسئلة مختلفة تماماً، ولكي لا نضيع الوقت دعيني أسأل هذا السؤال: فيم كنت تتحدثين أنت والسيد هاليدي؟

فاجأها سؤاله، ثم أجابت: في عملي قطعاً، وفي عمله أيضاً.

- هل خاض في نظرياته التي كانت ضمن بحثه الذي قدمه أمام الجمعية العلمية البريطانية أخيراً؟

- بالطبع؛ كان هذا هو أساس حديثنا.

- كانت أفكاره خيالاً، أليس كذلك؟

- هذا ما يظنه كثير من الناس ، لكنني لا أوافقهم .

- إذن فأنت تظنين أنها قابلة للتطبيق؟

- بالتأكيد ، إنها قابلة للتطبيق بصورة نموذجية . هذا هو محور أبحاثي التي أعكف عليها منذ بعض الوقت ، مع اختلاف في النتائج بيننا بالطبع . ذات مرة كنت أعالج أشعة غاما بالراديوم س ، وهو عنصر ينتج عن تحلل الراديوم المشعّ ، فوصلت إلى نتيجة عجيبة أثارت اهتمامي ، وهي في حقيقتها تتعلق بطبيعة القوة المغنطيسية . على أن الوقت لم يَحِنْ بعد لإعلان نتائج أبحاثي على الملأ ، وقد استفدت من السيد هاليدي ووجهات نظره التي أثارت اهتمامي كثيراً .

هزّ بوارو رأسه موافقاً ، ثم سألها سؤالاً أثار دهشتي : سيدة أوليفيه ، أين جلستما وتبادلتما الرأي؟ هنا في هذا المكان؟

- لا يا سيد بوارو ، بل في المختبر .

- هل يمكن أن أفحص المكان؟

- بالتأكيد ، تفضل .

مشت أماننا إلى الباب الذي دخلتُ منه ، ثم عبرنا ممراً قصيراً يؤدي إلى المختبر الكبير الذي كان يمتلئ بالأدوات المخبرية والأواني الزجاجية والأجهزة التي لا أستطيع حفظ أسمائها ، وكان فيه شخصان منشغلان قدمتهما السيدة أوليفيه لنا: الأنسة كلودي ، إحدى مساعداتي القديرات .

انحنت لنا، وكانت فتاة طويلة شابة ذات وجه صارم.

- والسيد هنري، صديق قديم ثقة.

كان الشاب قصيراً أسمر، وانحني لنا باحترام.

كان بوارو يستطلع المكان بعينه، فرأى بابين آخرين للمختبر يوصل أحدهما إلى حديقة القصر الخلفية والآخر إلى غرفة أبحاث أخرى صغيرة.

ثم أعرب بوارو عن شكره للسيدة أوليفيه وتساءل وهو يعود إلى الصالون: سيدتي، هل كنتما وحدكما أثناء اللقاء؟

- نعم، مساعداي كانا في غرفة الأبحاث الصغيرة.

- وهل كانا قادرين على الاستماع إلى حديثكما، هما أو غيرهما؟

- لا أظن، بل إن هذا حتماً غير محتمل، فالأبواب كلها كانت مغلقة.

- ربما اختبأ شخص ما في هذا المكان.

- توجد في الزاوية خزانة كبيرة، لكنها فكرة سخيفة.

- حسناً، بقي لديّ سؤال: هل ذكر السيد هاليدي أي ملاحظة عن برنامجه لذلك المساء؟

- أبداً، لم يذكر شيئاً عن هذا الأمر على الإطلاق.

شكرها بوارو وودعها بلطف واحترام، واعتذر إن كان قد سبب لها أي إزعاج. وكنا نهم بالخروج من الصلاة عندما دخلت من باب القصر امرأة صعّدت بسرعة نحو الدرج دون أن تبدي بنا اهتماماً، وقد دلّ ثوبها الأسود على أنها أرملة فرنسية. أثارت طريقة دخول تلك المرأة إلى المنزل اهتمام بوارو، فأبدى استغرابه قائلاً: امرأة غير طبيعية! إنها تثير التساؤل والعجب.

- السيدة أوليفيه؟ نعم، إنها...

- لا يا هيسستغز، لا أعني السيدة أوليفيه، فهي امرأة نادرة ذات شخصية فذة ربما يحتاج العالم إلى أمثالها، لكنني أعني تلك المرأة الأخرى التي قابلناها على الدرج.

قلت بدهشة: لكنني لم أستطع رؤية وجهها ولا أظنك كنت قادراً على ملاحظة ملامحها، فهي لم تلتفت إلينا.

قال بوارو بهدوء: وهذا هو السبب الذي يجعلني أقول ذلك. امرأة تدخل البيت وكأنه بيتها، معها مفتاح الباب، وتركض بسرعة نحو أعلى الدرج دون أن تتبّه لزائرين غريبين في البيت... هذا أمر غير طبيعي ويدعو إلى الإثارة والدهشة، إنه أمر غريب حقاً.

امتدّت يد بوارو نحوّي بقوة وجذبني بسرعة إلى الخلف في وقت مناسب تماماً، فقد انهارت شجرة سرو ضخمة كانت

تنتصب في صف الأشجار الذي يحاذي الممر الذي كنا نسير فيه وكادت تهوي على رأسينا.

جمدنا في المكان وقد سيطرت علينا المفاجأة والدهشة، وكان وجه بوارو شاحباً ثم قال بانزعاج: كانت قريبة منا جداً. إنه عمل أحقق طائش، ولحسن الحظ أنني لمحتها في الوقت المناسب رغم أنني لم أتوقعها. لقد كاد بوارو يختفي من الوجود، وبإلها من خسارة للعالم! وأنت أيضاً يا صديقي، مع أن موتك لن يكون مُصاباً وطنياً على الدرجة نفسها من الكارثية.

فقلت له ببرود: شكراً على هذا التقدير، لكن دعنا من هذه الثثرة الجوفاء. ماذا تريد أن نفعل الآن؟

- الآن؟ نعم، نعم، يجب أن نفكر لندرب خلايانا الرمادية. هل كان السيد هاليدي في باريس حقاً؟ نعم، لأن الخبير بورجونوا الذي يعرفه رآه وكلمه صباح الجمعة.

قلت: ما الذي تريد الوصول إليه بالله عليك؟

- كانت آخر مرة شوهد فيها في الساعة الحادية عشرة مساء الجمعة، لكن هل شوهد حينئذ حقاً؟ ومن الذي رآه؟

- حمّال الفندق.

- حمّال المناوبة الليلية الذي لم ير هاليدي من قبل؟ لقد رأى رجلاً يشبه هاليدي تماماً، لكنني أثق بقدره رقم «٤» على تقمص هذا الدور. ثم يسأل عن الرسائل ويصعد إلى الأعلى

وهو يحمل حقيبة صغيرة، وفي صباح اليوم التالي ينسلّ باكراً. في الحقيقة لم يشاهد أحداً هاليدي مساء يوم الجمعة لأنه كان قد وقع في أيدي أعدائه! هل كان الرجل الذي زار السيدة أوليفيه هو هاليدي؟ نعم، رغم أنها لم تعرفه من قبل، لأنه يصعب على الذي ينتحل شخصيته أن يخدعها في موضوعها العلمي المتخصص. لقد جاء هنا وقابلها ثم غادر، فماذا بعد ذلك؟

أمسك بوارو بذراعي وعاد أدراجه إلى الخلف قائلاً: والآن تخيل أن هذا اليوم هو الذي أعقب يوم اختفائه وأنا نتابع آثار الأقدام. أنت تحب هذه الطريقة، أليس كذلك؟ تخيل الرجل وهو ينعطف نحو اليمين كما فعلنا للتو، فتبعه مسرعةً امرأةٌ شابةٌ تغطي وجهها بنقاب الأرملة الأسود، تلحق به وتناديه: "سيدي، السيدة أوليفيه ترجوك أن تعود إليها". يتوقف ويلتفت، فتقوده المرأة الشابة، لكن إلى أين؟ لم تكن مصادفة أن المكان الذي لحقت به فيه هو الذي يتفرع منه ممر آخر، وعندها ستقول له: "هذا الطريق أقصر يا سيدي". حسناً، هنا على اليمين حديقة قصر السيدة أوليفيه وعلى اليسار حديقة بيت الجيران، ومن تلك الحديقة سقطت الشجرة. بابا الحديقتين يفتحان على الممر، ولا بد أن الكمين كان هناك: رجال يخرجون ويغلبونه ثم يحملونه إلى الدار الغربية.

صعد بوارو درجات القصر واتجه إلى الباب حيث قرع الجرس، فصرخت مذهولاً: أتريد مقابلة السيدة أوليفيه مرة أخرى؟

تبسّم بوارو باستخفاف قائلاً: لا يا هيستنغز، بل أريد
مقابلة المرأة التي رأيناها على الدرج.

- من تُراها تكون؟ قريبة السيدة أوليفيه؟

- الغالب أنها سكرتيرتها، وربما وُظفت من زمن قريب.

فتح الفتى الصغير الباب مرة أخرى، فقال له بوارو: هلاً
أخبرتني باسم الأرملة التي دخلت قبل قليل؟

- السيدة فيرونوا سكرتيرة سيدتي؟

- نعم، إنها هي. أرجو أن تطلب منها التكرم بلقائنا.

توارى الفتى قليلاً ثم عاد مرة أخرى وقال: عذراً، السيدة
فيرونوا ليست هنا.

- بل هي هنا. أخبرها أن اسمي هيركيول بوارو، وقل لها
إن من الضروري أن أراها الآن، فإني ذاهب إلى مدير الشرطة
حالاً.

دخل الرسول مرة أخرى، وبعد برهة جاءت المرأة فقادتنا
إلى المجلس وتبعناها، ثم أماطت النقاب فكشف وجهاً نعرفه:
إنها الخصم القديم، الكونتيسة الروسية، العقل المدبر لعملية
سرقة الجواهر الكبيرة في لندن!

قالت: سأخبركما بصراحة؛ عندما نظرتُ إليكما في
الصالة توقعت أن تسوء الأمور.

- عزيزتي الكونتيسة روساكوف!

هزت رأسها معترضة وقالت: الآن أنا إنيز فيرونوا، إسبانية متزوجة بفرنسي. ماذا تريد مني يا سيد بوارو؟ لقد سبق وأن اصطدتني في لندن، والآن تلاحقني في باريس؟ هل ستخبر السيدة أوليفيه؟ نحن الروس المساكين لنا حق العيش أيضاً!

قال بوارو بصرامة: الأمر أخطر من ذلك. إنني أعتزم أن أدخل البيت المجاور وأحرر السيد هاليدي إن كان حياً. لقد عرفت كل شيء.

لاحظت شحوباً قاتلاً على وجهها وعصف بها الذهول، إلا أنها تمالكت نفسها بعزم وقالت: إنه ما زال حياً، لكنه ليس هنا. ما قولك أن نعقد بيننا اتفاقاً: لي الحرية ولك السيد هاليدي حياً في صحة جيدة؟

- موافق، وقد كنت على وشك أن أقترح الصفقة نفسها عليك. لكنّ لدي سؤالاً أولاً: هل تشتغلين لحساب الأربعة الكبار يا سيدتي؟

رأيت الشحوب في وجهها مرة أخرى، لكنها تجاهلت سؤاله وقالت: هل تأذن لي بالاتصال بالهاتف؟

أجرت مكالمة هاتفية حيث السيد هاليدي محبوس، قالت: هل أنت أندريه؟ أنا إنيز. لقد عرف البلجيكي الضئيل بالأمر. أرسل هاليدي إلى الفندق وغادر المكان.

ثم وضعت السماعة وجاءت إلينا بتبسم، فقال لها بوارو:
سترافقينا إلى الفندق يا سيدتي.

- توقعت طلبك، أنا جاهزة.

أوقفنا سيارة أجرة وانطلقنا معاً إلى الفندق. لاحظت القلق في وجه بوارو، وكان الاضطراب والتوتر يسيطران على الجو والحذر يشمل الجميع. لكن الأمر جرى بسهولة، فحين وصلنا إلى ساحة الفندق هرع حمّال الفندق -وقد عرف بوارو- وقال باهتمام: لقد وصل قبل قليل رجل مريض وسأل عنك. إنه في غرفتك، أما ممرضته فقد خرجت سريعاً بلا انتظار.

- لا عليك، إنه صديقي.

صعدنا إلى الغرفة مسرعين، فوجدنا فيها شاباً هزياً منهنكاً تظهر عليه علامات الإعياء والإرهاق يجلس بجوار النافذة، وكان خائر القوى وعاجزاً عن الحركة والكلام.

سأله بوارو: أنت السيد جون هاليدي؟

هزّ رأسه، فقال بوارو: أرني ذراعك اليسرى.

كان تحت كوعه الأيسر شامة أكدت هويته لبوارو. بعد ذلك أنعش كأساً من الليمون المثلج هاليدي قليلاً، وهمس:
يا إلهي، لقد كنت في جحيم! هؤلاء زمرة من الشياطين. أين زوجتي الآن؟ لقد أخبروني أنها تظن... هل هي تظن...

- لا، إنها لم تصدق أي شيء مما قيل، إنها تثق بك كثيراً وما زالت تنتظرك.

- أشكر الله، لا أصدق أنني حر طليق.

- الآن أنت معافى يا سيدي. هلاً قصصت القصة من أولها؟

أصابت الرجل حالة ذعر وارتباك وتغيّر وجهه ثم قال:
إنني لا أذكر شيئاً.

- ماذا؟!!

قال هاليدي: هل سمعت بالأربعة الكبار؟

- نعم، قليلاً.

- أنت لا تعرف ما أعرفه. إن لديهم قوة غير محدودة، فإذا ما بقيت صامتاً فسوف أظل في أمان، أما إذا نطقت بكلمة فلن أشعر بالأمن لحظة واحدة، ولن يشعر بالأمن أقربائي وكل أعزائي. أرجو أن لا تحاول مناقشتي، فأنا على يقين من أمر واحد: إنني لا أذكر شيئاً!

ثم نهض وخرج من الغرفة، في حين راح بوارو ينظر إليه مدهوشاً محبباً كمن أُصيب بالهزيمة. ومرة أخرى حاول أن ينطق بعض الكلمات بغيظ واضح، لكنها كانت مكتومة لا تكاد تُسمع: إذن فالمسألة هكذا؟ لقد ربح الأربعة الكبار مرة أخرى؟

ثم سألني: ما هذه الورقة بيدك يا هيستنغز؟

- هذه ورقة كتبت عليها روساكوف بضع كلمات قبل
أن تغادر.

أخذها فقرأ فيها: «وداعاً، ٤». إنني أعجب يا هيستنغز،
إنني أعجب!

* * *

الفصل السابع

لصوص الراديو

أزق الأنين الواصل إلى مسمعي من غرفة جاري في الفندق جفنيّ فلم أنم جيداً، وكانت الشكوى المتقطعة التي أسمعها طوال الليل تحدث في نفسي أثراً عميقاً يطرد عني النعاس ويملاً ليلتي بالأسى. كان ذلك كله يصلني من غرفة هالدي التي نام فيها ليلة إطلاقه، وبدا واضحاً أن تجربته القاسية قد حطمت أعصابه ونالت من نفسه بدرجة كبيرة.

في الصباح التالي فشلنا بانتزاع أي معلومات من هالدي، فقد كان خائفاً من انتقام أولئك الأشرار لو تكلم بأي شيء، وكان متأكداً من القوة الهائلة التي يملكها الأربعة الكبار حتى بات يرفض النقاش في أمرهم، فتناول غداءه ثم سافر إلى إنكلترا عائداً إلى بيته وزوجته وطفله الصغيرة.

وجدت نفسي متحمساً للأحداث، ورأيت أن عليّ أن أواجه بوارو من قريب أو بعيد، لكن هدوءه الذي كان يزعجني جعلني أقول: أرجوك يا بوارو، دعنا نفعل شيئاً.

- حسناً يا صديقي ، ماذا نفعل؟

- نخبرهم عن الأربعة الكبار.

- نخبر من؟

- الشرطة.

ابتسم بوارو ببرود وقال: إنهم لن يصدقونا، بل ربما اتهمونا بالجنون لأننا لا نملك أي دليل. دعنا ننتظر.

- ماذا ننتظر؟

- ننتظرهم حتى يقوموا بتجربة. انظر إلى لعبة الملاكمة، اللعبة المفضلة لديكم في إنكلترا: إذا لم يتحرك أحدهما فلا بد أن يتحرك الآخر، فيسمح أحدهما لخصمه بالهجوم ليعرف طريقته وأسلوبه. نحن الآن سننتظر ونترك الفرصة للخصم حتى يهجم.

شعرت بالرهبة من كلامه فقلت: هل تظن أنهم سيفعلون؟

- بلا شك. لقد حاولوا إبعادي عن إنكلترا، ثم جريمة دارتمور التي تدخلنا فيها وأنقذنا ضحيتهم من الإعدام، وأمس تدخلنا في خططهم مرة أخرى... حتماً لن يقفوا ساكتين إزاء كل ما جرى.

كنت أدير كلماته في ذهني عندما طُرق الباب، وبغير استئذان دخل رجل إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه وجلس. كان

رجلاً طويلاً نحيلاً ذا بشرة شاحبة وأنف أعوج قليلاً، وكان يرتدي معطفاً مزرباً حتى ذقنه وقبعة ناعمة تغطي عينيه.

قال بصوت ناعم: عذراً أيها السيدان، لقد دخلت دخولاً غير لائق، لكن مهمتي خطيرة.

وجلس وهو يتسم بخبث، فأثارني هذا الموقف حتى كدت أتب من مكاني لولا أن بوارو منعني بإشارة من يده، ثم سأل الزائر الثقيل: كان دخولك فظاً كما قلت، فما هي مهمتك؟

- عزيزي السيد بوارو، أريد أن أخبرك بصراحة: أنت تزعج أصحابي.

- كيف؟

- أنت تعرف كما أعرف يا سيد بوارو.

- ومن هم أصدقاؤك هؤلاء؟

لم يُجبه، بل أدخل يده في جيبه فأخرج علبة لفائف تدخين فسحب منها أربعاً ونقرها على الطاولة، ثم أعادها إلى العلبة.

- آه، نعم، فالمسألة هكذا إذن؟ وماذا يقول أصدقاؤك؟

- يقولون: عليك أن توظف مواهبك في غير هذا الشأن، وأن تعود إلى بلدك لتشغل وقتك بحل مشكلات نساء المجتمع اللندني.

- يبدو أنه برنامج سلمي! وإذا لم أوافق؟

حرك الرجل يده حركة فيها معنى مقصود واضح وقال:
طبعاً ستأسف وتندم كثيراً، وسوف يحزن كل أصحاب السيد
هيركيول بوارو العظيم حزناً لا ينفعهم، لأن الحزن مهما اشتدّ
لا يمكن أن يعيد للأموات الحياة!

- حسناً، هَبْ أنني موافق.

- في هذه الحالة سأعرض عليك تسوية.

ثم سحب محفظته من جيبه فأخرج منها عشرة أوراق
كل واحدة من فئة العشرة آلاف فرنك، فألقى بها على الطاولة
وقال: هذا ضمان حسن النيّة فحسب، وسوف يصلك عشرة
أضعافه لاحقاً.

أدركتُ أن الخصم بين أيدينا وأن الفرصة مناسبة لإخبار
الشرطة وتحقيق انتصار كبير. كان قلبي ينبض بقوة وشعرت
بالإثارة ولم أعد أطيع انتظاراً، فصرخت بعنف وأنا أقفز من
مكاني: يا إلهي! هل تظن...

لكن بوارو أقعدني بقوة وقال بحزم: اجلس يا هيسنتغز،
اجلس مكانك. ما رأيك -يا سيد- لو اتصلت الآن بالشرطة
فيما صديقي هذا يمنعك من الهروب؟

- جرب أن تفعل، إن كنت تظن هذا التصرف من الحكمة.

صرخت قائلاً: لا يمكننا الاحتمال أكثر من ذلك. اتصل

بالشرطة فوراً يا بوارو ولنتته من هذا الأمر.

نهضت بسرعة فخطوت خطوات واسعة إلى الباب وسندته
بظهري، فهمس بوارو: يبدو أن هذه هي الطريقة المثلى.

فقال زائرنا وهو يتسم: لكنك لا تثق بها، أليس كذلك؟

قلت بإصرار وعزم: هيا يا بوارو، لا تتأخر.

رفع بوارو السماعة، وفي تلك اللحظة قفز الرجل قفزة
مفزعة تشبه قفزة القط، لكنها كانت باتجاهي وليس باتجاه بوارو.
وكنت مستعداً له له فالتحمتنا بعراك شديد أشبه بالمصارعة،
وشعرت فجأة أنه ضعيف بين يديّ فزادت حماستي، وطرحته
أرضاً وشعرت بنشوة النصر وأنا أتخيل نهاية المسرحية.

ثم وقع شيء غير عادي: وجدتني مقذوفاً ورأسي يضرب
بالحائط، ونهضت مشدوهاً أبحث عن خصمي الذي اختفى،
وركضت نحو الباب فوجدته مقفلاً من الخارج، فأسرعت إلى
الهاتف ورفعت السماعة وأنا أقول بانفعال: مكتب الاستقبال؟
أمسكوا الرجل قبل أن يخرج... رجل طويل يرتدي معطفاً
طويلاً مزراً وقبعة ناعمة، إنه مطلوب للشرطة.

مضت بضع دقائق قبل أن أسمع صوت المفتاح في الباب.
كان ذلك هو مدير الفندق، وصرختُ صرخةً مجنون: الرجل،
هل أمسكتموه؟

- لا يا سيدي، لم نشاهد أحداً.

- وكيف وقد مرّ بكم قبل قليل؟

- لم يمر بنا أحد بتاتاً.

قال بوارو: أظن أنكم مررتم بشخص ما، ربما يكون
موظفاً هنا؟

- نعم، نادل يحمل طبقاً لا غير يا سيدي.

- نعم، هكذا إذن.

ملأت الدهشةُ جو الفندق وظهرت الحيرة في وجوه
المسؤولين وكثر الكلام بين شك وتكذيب، أما بوارو فقد أدرك
الحقيقة فقال بثقة: من أجل هذا يرتدي معطفاً مزراً حتى ذقنه.

همست بخجل وأنا أحس بالهزيمة: كنت أظن أنني
أسقطته أرضاً!

- نعم، كانت طريقة يابانية في القتال. لا بأس عليك يا
صديقي، كل شيء سار حسب الخطة، أعني خطتهم قطعاً،
وهذا ما كنت أريده.

هتفت حين رأيت محفظة على الأرض والتقطتها بلهفة.
إنها من أثر المعركة، لا بد أنها سقطت من جيب زائرنا العزيز.
كانت فيها فاتورة باسم السيد فليكس، وورقة صغيرة من دفتر
ملاحظات كُتِب فيها بخط غير واضح بالرصاص. كانت تلك
هي الكلمات: «الاجتماع القادم يوم الجمعة، الساعة ١١
صباحاً، ٣٤ شارع إيشيليز». ثم إمضاء رقم «٤» بخط كبير.

كنا في يوم الجمعة وقد اشارت الساعة إلى العاشرة والنصف. صرخت بذهول: يا إلهي! إنها فرصة ثمينة، الأمور بأيدينا الآن. يجب أن نتحرك بسرعة، لعل الحظ يكون حليفنا هذه المرة.

همس بوارو كأنما يحدث نفسه: لقد جاء من أجل ذلك... فهمت كل شيء.

قلت: ماذا فهمت؟ متى ستكفّ عن محادثة نفسك يا بوارو؟

نظر بوارو إليّ نظرة إشفاق، ثم ابتسم قائلاً: "قالت العنكبوت للذبابة: هلا دخلت بيتي يا عزيزتي؟" ... هكذا يقول نشيد الأطفال في إنكلترا، أليس كذلك؟ لا يا صديقي، إنهم ماكرون دهاة، ولكن ليس بدهاء هيركيول بوارو.

- لم أفهم شيئاً مما تقول يا بوارو.

- كنت أتساءل عن زيارة الصباح هذه: هل أرادوا فعلاً رشوتي أم كانت زيارة ترهيب لأخافهم وأترك هذه المهمة؟ لكنني الآن فهمت الحقيقة. إنها خطة ماهرة بلا شك ومحكمة في الوقت نفسه، الظاهر هو الرشوة أو الترهيب، لكن المعركة كانت من أجل أن يبدو سقوط المحفظة أمراً عفويًا، وأخيراً المصيدة: شارع إيشيليز في الساعة الحادية عشرة صباحاً. لكن خداع هيركيول بوارو ليس سهلاً.

أدرت كم أنا ساذج وبطيء الفهم فهتفت: يا إلهي، إنهم

يَعْلَمُونَ الشَّيَاطِينَ الْمَكْرَ وَالْدُهَاءَ!

مضى بوارو بالتفكير، ثم قال: لكن فيها لغزاً آخر: الوقت. لماذا لم يختاروا الليل؟ أليس الليل أحسن لهم؟ لماذا الساعة الحادية عشرة صباحاً؟ هل في هذا الصباح أمر يدبرونه ولا يريدون أن يعرفه بوارو؟

استغرق بوارو في نوبة من الحيرة والتفكير، ثم هز رأسه وقال: سأبقى هنا ولن أغادر هذا الصباح. دعنا ننتظر وسوف نرى.

* * *

مرّ الوقت بطيئاً ثقيلًا كأن الساعة لا تتحرك، وازدحم رأسي بخيالات كثيرة لحوادث متنوعة. كنت أشعر أحياناً بالعجز والضعف عن المواجهة، وأحياناً أخرى بالإخفاق في فهم ما يجري.

بلغت الساعة الحادية عشرة والنصف ولم يحدث أي جديد، ثم طرقت خادم الفندق الباب وسلم ورقة زرقاء لبوارو. إنها من السيدة أوليفيه تطلب منه الحضور فوراً.

انطلقنا مسرعين إلى السيدة أوليفيه بلا تأخير، واستقبلتنا في المجلس الذي جلسنا فيه في اليوم السابق، ووجدتني في دهشة مرة أخرى من شخصية هذه المرأة القوية. كانت ذات عينين متوقدتين وتكاد تسيطر على محدثها بنظراتها القوية

الثاقبة، وبادرت بالقول: أمس قابلتُماني من أجل هاليدي، وبعد انتهاء المقابلة علمت أنكما دعوتما سكرتيرتي إينز، ولدهشتي فقد غادرت بيتي معكما ولم ترجع حتى الآن.

- أهذا كل ما في الأمر يا سيدتي؟

- بل الخطير أن اقتحماً تمّ في الليلة الماضية للمختبر واختفت أوراق ومذكرات قيّمة، وقد حاول اللصوص سرقة شيء آخر أشدّ خطراً، لكن الخزانة كانت مقفلة بإحكام ففشلوا في فتحها لحسن الحظ.

- يجب أن تعرفي الحقيقة يا سيدتي: إن سكرتيرتك السيدة فيرونوا هي الكونتيسة روساكوف، المحتمالة الشهيرة، وهي المسؤولة عن اختفاء هاليدي. كم مضى عليها وهي تعمل معك؟

- بدأت بالعمل معي منذ خمسة شهور تقريباً. لكن هذا يدعو إلى الدهول!

- هذه هي الحقيقة. هل كان العثور على الأوراق سهلاً أم أنه عمل يدل على معرفة سابقة؟

- الأمر العجيب هو أن اللصوص كانوا يعرفون ما يريدون تماماً، فهل تظن أن السيدة إينز...

- نعم، لا أشك أنها هي التي أرشدتهم. لكن ما هو الشيء الثمين الذي فشل اللصوص في سرقة؟ حُلِّي وجواهر؟

- بل أتمن من الجواهر كثيراً يا سيد بوارو... إنه راديوم.

قالت الكلمة الأخيرة وهي تميل برأسها تجاه بوارو.

- راديوم؟!!

- نعم، فأنا أقرب الآن من النهاية في تجاربي، وقد كان عندي قدر قليل من الراديوم، ثم قُدِّم لي قدر أكبر لإتمام أبحاثي، وهذا القدر (مهما كان ضئيلاً) فإنه بالنسبة إلى المخزون العالمي قدر عظيم تساوي قيمته ملايين الدولارات.

- وأين هو الآن؟

- في الحقيبة الرصاصية في الخزانة. وهي خزانة تبدو في ظاهرها قديمة، إلا أنها في حقيقتها إنجاز فني رفيع في عالم الصناعة، وهي التي جعلت اللصوص يفشلون.

- ما هي المدة الذي تتوقعين أن تحفظي فيها هذا القدر من الراديوم؟

- ليومين آخرين غير هذا اليوم، ثم تنتهي تجاربي.

- هل تعرف السيدة فيرونوا هذا؟

- نعم.

قال بوارو: آه، إذن سيعود أصحابنا مرة أخرى. سأحاول أن أحمي ثروتك من الراديوم، لكن علينا التكتم في هذا الأمر حتى لا يعرف به أحد. هل عندك مفتاح للباب الذي يؤدي إلى

المختبر من الحديقة؟

- نعم، ها هو. عندي نسخة أخرى، وهذا مفتاح الباب الذي يؤدي إلى الممر الذي يطل على دارة الجيران.

- شكراً لك يا سيدتي. اذهبي إلى النوم وأنت مطمئنة كالعادة. ولا تقولي شيئاً لمساعدتك، ولا سيما السكرتيرة. دعي الأمر لي.

كان بوارو متهلل الوجه وهو يغادر بيت السيدة أوليفيه، وكان يفرك يديه فرحاً بالنصر المرتقب. كانت الأمور كأنما تشير نحو الأحسن، وسألته: ماذا ستفعل الآن يا بوارو؟

- الآن يا هيستنغز سنسافر إلى إنكلترا.

- ماذا؟!!

- كما أخبرتك، سوف نحزم أمتعتنا ونتناول غداءنا ونسافر بالسيارة إلى جيردونورد.

- والراديو؟

- قلت إننا سوف نسافر إلى إنكلترا، ولم أقل إننا سنصل هناك. فكر يا هيستنغز، ألا تدرك أننا تحت المراقبة؟ يجب أن يطمئنوا إلى أننا ذاهبون إلى إنكلترا، ولن يطمئنوا حتى يرونا نركب القطار وهو ينطلق بنا.

- وننسلّ من القطار في آخر لحظة؟

- لا يا هيستنغز، فلن يرضيهم أقل من المغادرة التي لا خداع فيها.

- لكن القطار لا يتوقف إلا في كاليه.

- سيقف في حالة واحدة: إذا دفعنا.

- لن يقبل سائق القطار أي رشوة. كيف يقف قطار سريع؟

- توجد حيلة. ما هي غرامة إساءة استعمال المقبض الصغير الذي يُصدر إنذار التوقف في القطار؟ مئة فرنك؟

- هل ستمسك مقبض الباب وتسحبه أنت يا بوارو؟

- بل صديقي بيير كومبوا سيفعل ذلك، وسوف يثير ضجة كبيرة مع الحارس فيسبب مشهداً يستحوذ على انتباه المسافرين، فننسلّ نحن في هذه الأثناء خارجين من القطار.

* * *

سارت خطة بوارو كما رسم لها بعد أن وافق صديقه القديم (الذي كان على صلة ببوارو ومعرفة بأسلوبه ومنهاجه في العمل) واستطاع أن يصطنع ضجة كبيرة كأنها قنبلة دخانية سترت فرارنا من القطار دون أن يشعر بنا أحد، تنكرنا تماماً بعدما اشترى بوارو ما يلزم للتنكر ووضع في حقيبة صغيرة، وأصبح من غير السهل أن نعرفنا أحد بعد أن صار شكلنا يدل على اثنين متسكعين يرتدي كل منهما قميصاً ضيقاً قدرأ ذا ألوان فاقعة تدعو إلى السخرية!

أكلنا غداءنا في أحد مطاعم باريس المغمورة، وانتظرنا مغيب الشمس وحلول الليل على شوارع باريس وأزقتها، حتى إذا انتشر الظلام وأخذت مصابيح البيوت والحوانيت تقطع الظلام الدامس على جوانب المكان صرنا قرييين من منزل السيدة أوليفيه. نظرنا في الجهات كلها فلم نرَ أحداً، فتسللنا إلى الممر المغطى بالشجر الموحش المهجور.

كنا متأكدين أن أحداً لا يتعقبنا، لكن صوت الرياح الباردة التي كانت تحرك أوراق الشجر كانت تثير الرهبة، فربما كنا مُقَدِّمين على مواجهة مع أولئك المجرمين الذين ألفوا القسوة والقتل لأتفه الأسباب.

همس بوارو في أذني قائلاً: لا أظن أنهم وصلوا إلى المكان حتى هذه اللحظة، وقد لا يأتون اليوم. إنهم يعرفون أن معهم ليلتين يستطيعون سرقة الراديو فيهما.

وضع بوارو المفتاح في القفل وأداره بحذر شديد ثم دخلنا حديقة البيت بخفة، لكننا وجدنا أنفسنا في فك الذئب المرعب عندما وقعنا في الفخ! وجدنا فجأة عشرة من الرجال يحيطون بنا كالسوار، ولم تصنع مقاومتنا أي أثر. أوثقونا ثم حملوا كل واحد منا كما تُحمَل حزمة من القش، وفتحوا باب المختبر فألقونا فيه، ثم انحنى أحدهم أمام الخزانة الكبيرة وفتح بابها.

شعرت برعدة خوف قاتلة تسري في عروقي وأيقنت أننا سنوضع في الخزانة حتى نموت اختناقاً، ولكن بابها انفتح

-لدهشتي الشديدة- عن درجات تنزل إلى ممر سرّي إلى
الأسفل!

دُفَعنا على الدرجات بقوة، ثم إلى غرفة سرّية مخيفة،
وهناك رأينا قامة سوداء مهيبّة: امرأة طويلة ترتدي ثوباً أسود
طويلاً وتغطي وجهها بقناع من المخمل الأسود، وكان واضحاً
أنها صاحبة السلطة وسيّدة الموقف، تدل على ذلك إشارتها
الصامتة الأمّرة التي يمثل لها الرجال الأشداء.

قذفنا الرجال على الأرض وتركونا وحدنا مع تلك
المخلوقة الخفية خلف القناع الأسود، ولم يخامرني أدنى شك
أنها هي رقم «٣» من الكبار الأربعة، المرأة الفرنسية المجهولة.

جثت على ركبتيها ونزعت الكمامتين عن وجهينا، ثم
نهضت وانتصبت أمامنا، وبحركة مفاجئة سريعة نزعت قناعها
وكشفت الغموض. إنها السيدة أوليفيه!

قالت بتهمك وسخرية: سيد بوارو العظيم صاحب الذكاء
الخارق! لقد أرسلتُ إليك تحذيراً صباح أمس، لكنك لم تأبه
به وظننت أنك تستطيع مواجعتنا بذكائك الرائع، أليس كذلك؟
لكنك أتيت بقديمك إلى هذا الموقف الذي لا تحسد عليه.

لم يردّ عليها بوارو بكلمة، إلا أنني لاحظت أنه يحدق
إليها بدهشة. لا شك أن المفاجأة أذهلته، وقالت هي بلطف:
حسناً، هذه هي النهاية. لن نسمح لأحد أن يعترض خططنا،
فاطلب طلبك الأخير.

كنت أراقب الموقف بقلق وقد رأيت الموت أمامي.
والموت له رائحة تملأ المكان، لكن القتل وحده هو الذي
يشم رائحته. وذكرت زوجتي وأطفالي، صور وخيالات وشريط
من الأحداث يمر سريعاً في ذهني المكدود قبل أن أنظر إلى
وجه بوارو.

فوجئت بهيئة بوارو الهادئة؛ لم يشحب وجهه ولم تظهر
عليه آثار الخوف أو الفزع. كان رائعاً حقاً، وقال بهدوء وعيناه
مثبتتان على السيدة أوليفيه: حسناً أيتها المرأة الفاضلة، إن فيك
طبيعة مثيرة للاهتمام، لكن الوقت لا يسع دراستها. لديّ طلب
بسيط، الرجل المدان يُسمح له بالتدخين للمرة الأخيرة، وفي
جيبتي علبة لفائف لو تكرمت بالإذن.

ثم نظر إلى القيد في يديه، فضحكت وهي تقول: تريدني
أن أفكّ قيدك، أليس كذلك؟ أنت ذكي بلا شك، لكنني لن
أفكّ يديك وسأجد لك لفافة التبغ التي تريدها.

مدت يدها إلى جيبه وأخرجت علبة اللفائف فأمسكت
منها واحدة ووضعتها بين شفثيه ونهضت قائلة: والآن عود
الثقاب؟

- لا، ليس لازماً، لا أحتاج إليه.

كانت في صوته نبرة غريبة أجفلتني وأثارت الريبة في نفس
السيدة أوليفيه فارتعدت، فيما نطق هو بهدوء: لا تتحركي،
سوف تندمين لو فعلت. انتبهي جيداً، أظن أنك تعرفين جيداً

مادة الكورار، هنود أمريكا الجنوبية يدهنون بها سهامهم، إن خدشاً بسيطاً بها يعني الموت. بعض القبائل يستعملون أنبوب النفخ، وهذا ما أملكه الآن لكن في شكل لفافة تبغ، وما عليّ سوى أن أنفخ فيها. إن هذه اللفافة مدهشة، أنفخ فيها فيخرج سهم دقيق كعظمة السمكة نحو هدفه، يطير سريعاً كالبرق. أنت حتماً لا تريدين الموت يا سيدتي، إذن عليك أن تحرري صديقي هيستنغز من قيوده. تعلمين أنني أستطيع أن أدير رأسي في كل الاتجاهات ويديا مقيدتان، فيالك أن تفكري بأي خدعة، وحذار من الخطأ وإن يكن صغيراً.

سيطرت عليها رعشة رعب. كانت يداها ترتعدان وغدا وجهها مُصفرّاً كثيراً وشفثاها تميلان نحو الزرقة وحركاتها تنطق بالحق، لكنها نفذت أمر بوارو بدقة. ثم جاء صوت بوارو يستمر في الأوامر بعد أن أصبحتُ حراً من قيودي: سيد هيستنغز، قيد السيدة بسرعة، قيدها بقوة وتأكد من ذلك.

بعد ذلك حررت بوارو من قيوده فوراً، وتلمسنا طريق الخروج فوجدناه مفتوحاً. وقبل أن نفر من المكان اتجه بوارو نحو السيدة فانحنى لها وهو يقول: إن هيركيول بوارو لا يُقتل بسهولة يا سيدتي. أتمنى لك ليلة طيبة.

* * *

بعد ثلاث دقائق كنا نجتاز المكان مسرعين وأنا ما زلت أكذب نفسي أننا عدنا إلى الحياة مرة أخرى. كنت في ذهول

كامل وشعرت بلساني معقوداً غيرَ قادرٍ على الكلام. هل كان حلماً مزعجاً؟

اندفع بوارو يثرثر وقد انتابه هيجانٌ مثير، يتكلم بمزاجٍ حادٍ لا يكاد يضبط الكلام: أنا أستحقُّ كل ما قالته لي تلك المرأة. إنني أحقق ثلاث مرات وأبله وحيوان تعس غبي ستاً وثلاثين مرة! ربما أستطيع أن أفخر بنفسني أنني نجوتُ منهم، لكن تقديري كله كان خطأ. لقد نجحوا في خداعي ووقعت في الفخ كما أرادوا. عرفوا أنني سأواصل حتى النهاية فصنعوا ما صنعوا.

الآن أصبح كل شيء واضحاً: السهولة التي أوقعوا فيها بهاليدي ثم السهولة التي حرروه بها. السيدة أوليفيه كانت هي الحاكمة، أما فيرا روساكوف فليست سوى مستخدمة عندها. ويبدو أنها استطاعت إتمام أبحاثها بواسطة المعلومات التي أخذتها من هاليدي. لقد عرفنا إذن من هو رقم «٣»، إنها أعظم امرأة في العالم! إذن فإن الأربعة الكبار جماعة تضم عقل الشرق وعقل الغرب وقوتين أخريين مجهولتين. يجب أن نعرفهما، يجب علينا أن نكشفهما يا هيستنغز. سنعود إلى لندن لنبدأ البحث مرة أخرى.

- ألا تريد أن تخبر الشرطة عن السيدة أوليفيه؟

- لن يصدقوني يا عزيزي، فهذه المرأة رمز من رموز فرنسا، كما أننا لا نملك دليلاً. سنكون محظوظين إن لم تبلغ هي الشرطة عنا.

- ماذا؟! -

- نعم، لقد قُبُض علينا في قصرها ليلاً ومعنا مفتاحه،
ولن يكفي أننا قيدناها وكممنها بشكل مدهش واستنقذنا
أرواحنا من مخالب الموت.

* * *

الفصل الثامن

في عقر بيت الخصم

بعد تلك المغامرة الرهيبة في فيلا باسي لم نعد نطيق
المقام في باريس، فانطلقنا عائدين إلى إنكلترا على عجل،
وهناك وجد بوارو كومة من الرسائل بانتظاره. قرأ إحداها
والبسمة على وجهه، ثم دفعها إليّ وقال: اقرأ هذه الرسالة.

كانت الرسالة مذيّلة بإمضاء أبي ريلاند، فتذكرت أنه
ذلك الرجل الذي وصفه بوارو مرة بأنه أغنى رجل في العالم،
وكانت تعرب عن خيبة أمل ريلاند لأن بوارو تخلى عن قضية
أمريكا الجنوبية في آخر لحظة.

قال بوارو: هذه الرسالة تجعلني أبذل مزيداً من التفكير
المتواصل العميق، أليس كذلك؟

- لكن من الطبيعي أن يبدي الرجل أسفه، وله الحق أن
يغضب.

- لا يا هيستنغز، فكر بعمق. ألا تذكر كلمات مايرلنغ،

ذلك الرجل الذي فرّ إلينا من الموت فوجد الموت ينتظره! لقد قال إن رقم «٢» يُرمز له بعلامة الدولار أو بشريطين ونجمة، وهكذا نحدس أن يكون أمريكياً وأنه يمثل قوة المال. ثم إن الرجل عرض عليّ مبلغاً كبيراً جداً ليغريني بمغادرة إنكلترا. ماذا تفهم من ذلك كله يا هيستنغز؟

قلت له وأنا أنظر إليه نظرة أبله: هل تقصد أنك تشكّ في آبي ريلاند صاحب الملايين أنه رقم «٢» من الأربعة الكبار؟

- بدأت تفهمني يا هيستنغز. نعم، إنني أشك فيه فعلاً. المشهور عن ريلاند أنه رجل ثري وقوي لكنه عديم الضمير، رجل يملك كل الثروة وسلطته لا حدود لها، إلا أنه لئيم وسيء في المعاملة، ولا يستطيع أحد أن يقف في وجهه لأن له قوة خارقة.

- منذ متى فكرت بهذا الاحتمال؟

- إنها فكرة مجردة تجول في خاطري. ليس لديّ أي دليل لإثباتها، لكنني مستعد لأن أقدم كثيراً كثيراً من أجل معرفة ذلك، وأنا أظن أن النظرية التي تقول إن رقم «٢» هو ريلاند ستساعدنا على الاقتراب من الهدف.

- تستطيع أن تزوره وتعتذر له.

- ربما فعلت ذلك.

* * *

بعد يومين عاد بوارو إلى المنزل وهو مصاب بالدهشة والانفعال، ثم أمسك بي بكلتا يديه كما يصنع عادة عندما يتحمس كثيراً وقال: يا صديقي، إنها مناسبة مذهلة حقاً ربما لا تتكرر، وقد جاءت بلا تخطيط، لكن فيها خطورة كبيرة تجعلني متردداً في عرضها عليك.

- إذا كنت تحاول أن تخيفني فأظنك تسير في الاتجاه الخطأ يا بوارو.

بعد أن هدأ قليلاً وخفت حماسته كشف خطته التي تقتضي أن أتقدم بطلب عمل لدى آبي ريلاند بعدما أعلن في الصحف أنه يحتاج سكرتيراً إنكليزياً من ذوي النمط الاجتماعي الراقى وذوي الكفاءة العالية والحضور المميز.

قال لي بوارو باعتذار: من الصعب أن أمثل أنا هذا الدور، أن أتكلف دور الباحث عن عمل وأخفي شخصيتي المشهورة. حتى لو كنت أتكلم الإنكليزية بطلاقة فسيكون عليّ أن أضحي بشواربي، وحتى لو تخليت عن شاربي أيضاً فسأظل معروفاً أنني هيركيول بوارو!

وافقته أن الأمر عسير عليه، وأعلنت استعدادي ورغبتني في اختراق عالم ريلاند، وأكدت أنني واثق من قدرتي على النجاح.

- سوف أهيئ لك الشهادات التي تجعل ريلاند يلحق شفتيه، سأجعله يحط على يدي كعصفور أتى لينقر كسرة الخبز.

كانت الخطوة الأولى أن نذهب إلى فنان في المكياج.
حدّق الرجل إليّ ملياً وهو صامت، وكنت أنظر في رأسه
الصغير وحجمه الضئيل مثل هيركيول بوارو، ثم بدأ صنّعه
بجد وهمّة.

بعد ساعة تقريباً قمت إلى المرأة ونظرت فأذهلني مشهد
نفسي: حذاء خاص جعلني أطول ببوصتين، ومعطف طويل
أبدو فيه نحيلاً طويلاً، وقد تغير شكل حاجبيّ وباتت ملامح
وجهي مختلفة تماماً، فاختفى شاربتي وظهرت من جانب فكي
الأيمن سن ذهبية، وتحوّل لوني من السمرة إلى البياض... إن
المظهر خدّاع بالتأكيد.

نظر بوارو إليّ وقال: اسمك هو آرثر نيفلي. يحفظك الله
يا عزيزي، أرجو لك السلامة من الخطر.

* * *

قدمت نفسي في فندق سافوي في الموعد الذي حدده
آبي ريلاند.

قادوني إلى غرفة علوية حيث كان يجلس رجل طويل
خلف طاولة ضخمة، وقد بدا نحيلاً طويلاً وله ذقن بارزة وأنف
معقوف قليلاً، عيناه اللامعتان تكادان تختفيان تحت حاجبين
غليظين، أما شعره فقد كان رمادياً غزيراً، وكان في فمه سيغار
طويل لا يكاد يتركه. وكان يتكلم بطريقة فظة من طرف فمه،
وكان يَمُنّ على محدثه بعدد الكلمات، بل يُشعره أنه يتفضل

عليه بالحديث.

جلست وقلبي يدقّ بعنف حتى خشيت أن تُسمع دقاته!
وكانت أمامه رسالة من رسائل التزكية التي أعدها بوارو
بعناية. قال: في هذه الرسالة أنك ثقة، فهل تجد فن المجاملة
الاجتماعية؟

- أظن أنني أستطيع إرضاءك في هذا.

- لو كان عندي جماعة فيهم الدوق والإيرل والفيكونت
يجتمعون في بيتي الريفي، هل تستطيع أن تجلسهم في مقاعدهم
المناسبة؟

أجبتّه وأنا أبتسم بثقة: بكل سهولة يا سيدي، هذا مما
أُتقنه.

تبادل معي حديثاً قصيراً ثم أشعرتني بالموافقة، ووجدت
نفسي مستخدماً عنده، فقد أراد ريلاند سكرتيراً مطلعاً على
خبايا المجتمع الإنكليزي، حيث كان عنده سكرتير آخر أمريكي
وكاتبة اختزال.

* * *

بعد يومين توجهت إلى هاتون شيز، مركز دوق مقاطعة
لوشير الذي استأجره ريلاند لمدة ستة أشهر، وهناك لم أجد
صعوبة في تأدية واجبي، فقد عملت - ذات يوم - سكرتيراً
لأحد أعضاء البرلمان.

كان ريلاند يستضيف نخبة من كبار الناس في نهاية كل أسبوع، أما سائر أيام الأسبوع فكانت هادئة نسبياً. وكان في البيت ثلة من الموظفين: كبير الخدم ومدبرة المنزل والطاهي وخدم وخدمات. وحاولت مراقبتهم جميعاً ودراستهم ومعرفتهم عن قرب. وقد شعرت بالريبة بكبير الخدم، أما الشاب الأمريكي، السيد أبلباي، فقد بدا مرتاحاً يثق بنفسه ويتقن عمله باقتدار. أما ديفز، الخادم الخاص للسيد ريلاند الذي أحضره من نيويورك، فبدا لي شخصاً غامضاً وكانت نفسي تمتلئ شكوكاً فيه، لكن سيده كان يثق فيه تماماً. واجتهدت أيضاً أن أتقرب من الأنسة مارتن كاتبة الاختزال. كانت في الثالثة والعشرين تقريباً، ذات عينين عسليتين وشعر خروبي، وحاولت كسب ثقتها لا سيما بعد أن تبين لي أنها تكره سيدها ولا تثق به.

مكثت في هاتون شيز ثلاثة أسابيع، وكانت حياة هادئة لا حوادث فيها، حيث لم أستطع أن أعرف شيئاً يستحق الذكر، وبدا ريلاند في نظري شخصية ذات مكانة اجتماعية متميزة لها القدرة على التأثير ولا يبدو أنه على صلة بمنظمة الأربعة الكبار.

كانت تترسخ في نفسي قناعة بأن بوارو أخطأ في ظنه الجائر الذي يربطه بهذه المنظمة المشبوهة، إلى أن سمعته مرة يذكر بوارو حين كان يتناول عشاءه في إحدى الأمسيات: يقولون إنه رائع ذلك الرجل الضئيل، لكنني وجدته انهزامياً. لقد اتفقت معه على صفقة ولكنه رفضها في الدقيقة الأخيرة، إنني لا أود معاملة صاحبك هيركيول بوارو مرة أخرى.

في مثل تلك اللحظات كنت أشعر بالخشية من انكشاف أمري وأشك في جودة التمويه الذي كسيت به نفسي.

ثم حصلت على قصة مثيرة عندما سافر ريلاند إلى لندن ومعه أبلباي، فقد كنت أسير في الحديقة مع الأنسة مارتن بعد شرب الشاي، وبدت الفتاة طبيعية جداً وغير منفعة على الإطلاق، لكنني كنت ألمح أسراراً وأحاديث تجول في رأسها، وأخيراً قالت: هل تعلم -يا ميجر نيفلي- أنني أفكر في الاستقالة من عملي في هذا المكان؟

ظهرت عليّ علامات الدهشة فيما تابعت هي قائلة: آه، أدرك أن كثيراً من الناس سينعتونني بالحماقة، فهم يحسدونني على هذه الوظيفة، لكنني ما عدت قادرة على تحمل المزيد من الشتائم. لا أحد يصدق أن مثل هذه الأفعال تصدر عن مثل هذا الشخص العظيم!

- وهل يسيء ريلاند إليك؟

هزت رأسها ثم قالت: إنه سريع الغضب وذو مزاج متقلب، وهذا طبع لا يُحتمل، فهو إذا صار ثوراً هائجاً كاد يبطش بمن يلقاه لأتفه الأسباب. لا أحد يستطيع احتمالها، إنها مشكلة تستعصي على الحل.

قلت وأنا أرجو سماع المزيد: هل لك أن توضحني الأمور؟

- كما تعلم فإنني أفتح كل رسائل السيد ريلاند فأسلم

بعضها إلى أبلباي والأخرى أقوم بالإجراءات التي تخصصها بنفسي، وإذا فرزت الرسائل الأولى عليّ أن أتعامل بحذر مع نوع ما من هذه الرسائل، وهي التي تجيء مكتوبة على ورق أزرق وقد ظهر في أحد أطرافها رقم «٤» بخط صغير.

عندها لم أستطع كبح صرخة ذهول انطلقت من أعماقي، لكنني حاولت خنقها في مهدها مما جعلها تنظر إليّ قائلة: عذراً، هل تريد أن تقول شيئاً؟

- لا، لا شيء بتاتاً، أرجوك أكملني.

- حسناً، الرسائل التي تحمل هذا الرقم لديّ أمر صارم بعدم فتحها، ويجب تسليمها إلى السيد ريلاند نفسه. وقد حدث صباح أمس أن فتحت إحدى تلك الرسائل خطأً، فذهبت من فوري إلى السيد ريلاند وشرحت له الموقف واعتذرت له كثيراً، لكنه انقلب فجأة إلى صورة شيطانية مرعبة وكاد يفتك بي! لقد خفت منه كثيراً.

- وهل كان الأمر يستحق كل هذه الثورة؟ ماذا كان في الرسالة؟

- لا شيء البتة، وهذا مما يدعو إلى التساؤل ويشير الدهشة. لقد قرأتها قبل أن أكتشف خطئي وأذكرها كلمة كلمة، لم يكن فيها ما يدعو إلى القلق.

- شجعتها قائلاً: هل تستطيعين تكرارها؟

- نعم، كانت على النحو التالي: "سيدي العزيز، الأمر ضروري الآن، لذا عليّ رؤيتك. إذا أردت تضمين المحجر فربما كان مبلغ ١٧ ألفاً معقولاً، لكن ١١٪ عمولة كبيرة، ٤٪ نسبة كافية. المخلص: آرثر لافيرشام".

أصغيت إلى حديثها بكل عناية مع تظاهري بعدم الاهتمام، فيما تابعت قائلة: من الواضح أن السيد ريلاند كان يفكر في شراء بعض الأملاك، لكنني أشعر أن في الأمر ما يدعو للإثارة الفضول في الحقيقة. إنه يبدو رجلاً خطيراً، فماذا تنصحنني يا سيد نيفلي؟ إن خبرتك في الحياة أكبر.

حاولت تهدئة الفتاة قليلاً مشيراً إلى أنه ربما كان يعاني من حالة صحية سيئة، وقد بدا عليها الارتياح لكنني لم أشعر بالاطمئنان إلى السهولة التي تم بها الأمر.

ثم غادرت الفتاة المكان، فجلست وحدي أفكر بهذه الرسالة المهمة بعدما دوّنت كلماتها على عجل. بدت الرسالة صادقة وليس فيها ما يدعو للإثارة، فهل كانت تخفي صفقة تجارية ينوي ريلاند إنجازها؟ وهل هو حريص على أن لا تُكشف أي أسرار منها قبل إنجازها؟ ربما، هذا جائز، لكن العلامة التي كانت تظهر على المغلفات هي موطن الإثارة، رقم «٤» بخط صغير!

مكثت طول ذلك اليوم ومعظم نهار اليوم التالي وأنا أفكر في هذه الرسالة، وفجأة شعرت أنني اهتديت إلى الحل. رقم

«٤» كان هو الدليل ، فحين نقرأ كل رابع كلمة في الرسالة تظهر رسالة أخرى مختلفة:

ضروري رؤيتك، المحجر، ٧١، ١١، ٤

أما الأرقام فكانت تعني بكل بساطة: ١٧ من الشهر، وهو يوم الغد، ١١ هي الساعة، رقم ٤ هو الإمضاء المعروف، أما المحجر فهو إشارة إلى المحجر المهجور الذي كان يبعد نصف ميل عن بيت ريلاند، وهو منطقة معزولة تصلح للقاءات السرية.

شعرت بالفخر عندما نجحت في فهم اللغز، وغمرتني السعادة في داخلي لأنني ربما تفوقت على بوارو هذه المرة، مما جعلني أفكر في مغامرة كشف هذا اللقاء وحدي. وفي النهاية وبعد تفكير وتردد قهرت هذا الإغراء لأنني أدركت أن هذا عمل كبير خطير ربما يعرض فرصة نجاحنا إلى الخطر، فقررت أن أطلع بوارو على التفاصيل، فهو يملك عقلاً أفضل من عقلي بكل تأكيد.

كتبت له رسالة شرحت فيها الحقائق كلها وأوضحت له ضرورة متابعة ذلك اللقاء، وكشفت له رغبتني في إدارة اللعبة وحدي إذا رأى ذلك من الحكمة، ثم أخذت الرسالة بنفسني إلى محطة البريد وقد فصلت له كيفية القدوم إلى المكان إذا لم أستطع مقابلته في المحطة.

كنت شديد الانفعال في مساء اليوم التالي، وكان المنزل

خالياً من الضيوف ولكنني كنت مشغولاً طوال المساء مع السيد ريلاند، وقد فقدت الأمل في أن أستطيع لقاء بوارو في المحطة، لكنني كنت واثقاً أنني سأغادر قبل الحادية عشرة.

كان عقرب الساعة يقترب من العاشرة والنصف مساءً عندما نظر ريلاند إلى ساعته وأشار بأن العمل انتهى في ذلك اليوم، ففهمت الإشارة وانسحبت بهدوء نحو الطابق العلوي كأنني أريد الاستعداد للنوم، لكنني تسللت إلى الأسفل بهدوء عبر درج جانبي، ثم تسللت إلى الحديقة وقد أخذت حذري وارتديت معطفاً أسود طويلاً. وعندما نظرت خلفي شاهدت السيد ريلاند يغادر مكتبه عبر الحديقة مسرعاً في طريقه إلى الموعد، فانطلقت مسرعاً أكثر لكي أسبقه إلى المحجر. وهناك كان المكان خالياً، فتوجهت نحو شجيرات منغزلة متشابكة في طرف المحجر واختبأت خلفها لأراقب المكان.

بعد عشر دقائق ظهر ريلاند يمشي بتشامخ وقد ارتدى قبعة تدلت على عينيه وفي فمه سيغاره الذي لا يفارقه. دار بنظره في المكان ثم تقدم إلى أرض المحجر ووقف في ركن منه يلفه الظلام. وسمعت همس رجال كان يصل إلى أذني مما يشير إلى أن الرجال الآخرين كانوا قد وصلوا إلى المكان أولاً، فخرجت من بين الشجيرات بهدوء شديد دون أي ضجيج، وتسللت منحدرًا نحوهم ببطء وحذر شديدين لأحاول استراق السمع إلى ما يقولون، واختفيت خلف صخرة كبيرة كانت تفصلني عنهم.

كان الظلام يلف المكان وكنت أسمع حديثهم بوضوح،
وشعرت أنني آمنٌ في موقع إستراتيجي غير مكشوف. ثم وقعت
المفاجأة الصاعقة عندما نظرت إلى حافة الصخرة فوجدت
نفسى فجأة أمام فوهة بندقية مصوبة نحوي، وإذا الرجل يكمن
قرب الصخرة وقد وقعت في الفخ تماماً!

صرخ فيّ بلهجة مرعبة، وشعرت بفوهة البندقية الباردة
على قفا عنقي. وقال ريلاند متشداً: مرحباً، لقد كنت أنتظر.

ثم صاح بالرجل: حسناً يا جورج، أحضره هنا.

قادني الرجل وأنا أمتلىّ غيظاً وحنقاً من هذا الفشل الكبير،
وكمّموا فمي وكبّلوا يديّ بالحبال بإحكام، ثم خاطبني ريلاند
بلهجة حازمة كلها تهديد ووعد، وكان صوته متهدجاً لفرط
الانفعال حتى حسبت أن رجلاً غيره يتكلم!

قال: هذه هي نهايتكما. لقد حاولتما التدخل في شأن
الأربعة الكبار أكثر من مرة، ولن يكون الأمر سهلاً هذه المرة.

سكت هنيهة وضحك بشراسة ثم مضى قائلاً: هل سمعت
بالانهيار الصخري؟ لقد حصل مثل هذا الانهيار في هذا المكان
قبل سنتين، وسيحصل انهيار آخر بعد قليل هنا أيضاً، وسوف
يجري الأمر بكل دقة وإحكام. لكن يبدو أن صديقك لا يحترم
مواعيده بدقة كما كنا نرجو، أليس كذلك؟

شعرت بالرعدة تسري في جسدي حين تذكرت بوارو وأنه

ستقوده قدماه إلى الفخ بعد لحظات وأنا لا أملك أي وسيلة
لتحذيره من هذا المصير المشؤوم! أستطيع فقط أن أبتهل إلى
الله أن لا يأتي هنا، ومع مرور الوقت وعدم ظهوره بدأت أشعر
بالاطمئنان.

وفجأة اندفعا بسرعة بعد سماع وقع أقدام تقترب. كان
القادم هو بوارو، وصرخ ريلاند: قف وارفع يديك!

قفز ديفز مرافق ريلاند وفاجأ بوارو من الخلف، لقد
اكتمل الكمين! وقال ريلاند: أنا مسرور بلقائك يا سيد بوارو.

كان بوارو يضبط أعصابه بصورة عجيبة. لم يضعف ولم
يهتز، لكنني رأيت عينيه تبحثان في الظلمة ذات اليمين وذات
اليسار، ثم سأل: صديقي، هل هو لديكم؟

- نعم، كلاهما في الفخ، فخ الأربعة الكبار.

ابتسم بوارو بهدوء، ثم سأله: فخ؟ أي فخ هذا؟

- ألم تدرك ذلك حتى هذه اللحظة؟

- أدرك أن في الأمر فخاً، لكنك مخطئ في ظنك يا
سيدي. أنت الذي وقع في الفخ لا أنا وصديقي.

- ماذا تقول؟!

رأيت الخشية في وجه ريلاند، فيما راحت عيناه تبحثان
في المكان والاضطراب ظاهر في حركاته ونبرة صوته.

- إذا أطلقت النار فإنك ترتكب جريمة قتل أمام عشرات العيون التي تراقبنا الآن، وسوف تُشنق بسببها. المكان محاصر تماماً، فرجال سكتلنديارد يحيطون بالمكان منذ ساعة. لقد سقط الملك في هذه الجولة يا سيد أبي ريلاند.

ثم صفر صفيراً حاداً، وخلال لحظات قصيرة ضجّ المكان بحركة الرجال المسلحين حقاً وكأن ذلك تم بطريقة سحرية. أمسكوا بريلاند وخادمه وجردوهما من السلاح، ثم تحدث بوارو بضع كلمات مع الضابط المسؤول.

بعد قليل عاد المكان خالياً من الرجال والحركة، وأقبل بوارو يعانقني وكأنني في حلم ليلي مرعب. قال: إنك لم تُصب بأذى؟ هذا رائع، لقد لمتُ نفسي كثيراً لأنني تركتك تذهب وحدك.

- أنا في عافية تامة، لكنني مضطرب قليلاً. لقد سقطتُ في فخّهم الصغير، أليس كذلك؟

- لكنني كنت أنتظره، ومن أجله كان عملي مع هذا الشخص. اسمك المزيف وشخصيتك التضليلية لم يُقصد بهما الخداع أبداً يا عزيزي.

- ماذا تقول؟ هل أنت جاد في حديثك؟ لماذا لم تخبرني بشيء عن هذا كله؟

كانت الأسئلة تتبعثر من بين شفتيّ من الدهشة بلا ترتيب،

وشعرت بعجزني عن فهم تلك اللعبة.

- كما قلت لك يا هيستنغز: إنك تتمتع ببراعة الأطفال يا صديقي، وإذا لم تكن مخدوعاً فيصعب عليك أن تخدع هؤلاء. لقد كشفوك منذ اللحظة الأولى! وقد توقعتُ كل ما حدث، إنها مسألة رياضية واضحة النتيجة لكل من يُعمل خلاياه الرمادية بشكل صحيح. لقد حاولوا أن يجعلوك طعماً وكانت الفتاة هي الوسيلة، فهل كان شعرها أحمر؟

- إن كنت تقصد الآنسة مارتن فإن شعرها يحوي ظلاً ناعماً من اللون الخروبّي، ولكن...

- لقد درسوا شخصيتك بإمعان، إنهم جماعة مدهشون بالفعل. نعم يا صديقي، كانت الفتاة متورطة تماماً في المؤامرة، وقد كررت عليك الرسالة وهي تروي قصتها مع ريلاند حتى تحفظها بشكل صحيح. إنها طريقة ذكية بلا شك، وأنت استطعت تحليل الشفرة التي لم تكن صعبة على كل حال، لكن الشيء الذي لم يحسبوا حسابه أنني كنت أنتظر هذا الفعل الذي سيُقدمون عليه، ثم تدبرت الأمور مع جاب، وهكذا انتصرنا عليهم أخيراً.

* * *

لم أشعر بالسرور تجاه ما حصل ولم أكن راضياً عن أسلوب بوارو ذلك، وقد أخبرته بشعوري. وبعد قليل ومع تسرّب أول شعاع من ضوء النهار سافرنا إلى لندن في قطار

الحليب الذي ينطلق مبكراً في رحلة غير مريحة أبداً.

كنت قد خرجت لتوّي من الحمام غارقاً في أحلامي
بفطور لذيذ، وإذا بصوت جاب يعلو من غرفة الجلوس: يا
له من أمر سيّء يا بوارو! ما هذا السراب الجميل الذي أوقعتنا
فيه؟ إنها أول مرة أراك تخفق فيها بهذا الشكل.

كان بوارو في قمة دهشته ينظر إلى جاب بوجوم ثقيل وهو
يتابع حديثه: لقد أخذنا الأمر على محمل الجد، وإذا بذلك
الشخص هو الخادم!

صرخت بدهشة: الخادم؟!

- نعم، إنه جيمس... أو أيّاً كان اسمه.

صرخت بتشنّج: مستحيل!

- ألا تصدق؟ لقد اقتدنا الرجل المحترم إلى هاتون شيز،
وهناك وجدنا ريلاند الحقيقي نائماً في سريره، وقد أقسم كبير
الخدم والطاهي أنه لم يغادر المكان.

قال بوارو هامساً: إذن هذا هو السبب الذي دعاه إلى البقاء
في العتمة كل الوقت ليلة أمس؟

نهض جاب منصرفاً، وكان الجو مليئاً بالدهشة والغموض.
نظر كل منا إلى الآخر بصمت، وأخيراً قال بوارو: إننا نعرف يا
هيستنغز أن أبي ريلاند هو رقم «٢»، والتنكر في دور الخادم

كان هو الضمان الوحيد لخطة الرجعة في حالة الطوارئ، أما
الخادم...

قلت وأنا ألتقط أنفاسي: نعم؟

ردّ بوارو بهدوء: إنه رقم «٤».

* * *

الفصل التاسع

لغز الياسمين الأصفر

أعقت حادثه المحجر تلك فترة هادئة، لكنني كنت أشعر أننا لم نحقق القدر الواجب من النجاح والتقدم في ملاحقة الأربعة الكبار، فمنذ اتصالنا بهم ارتكبوا جريمتين وخطفوا هاليدي، وكانوا على شفا قتلي أنا وبوارو، ولم نستطع أن نسجل إلا نقطة واحدة في هذه اللعبة الخطيرة.

حين صارحت بوارو بما في نفسي قال: إنهم يضحكون حتى هذا الوقت يا هيسنغز، هذا صحيح، لكن المثل الذي يقول: «المهم من يضحك أخيراً» يصدق فيهم، أليس كذلك؟ يجب أن تعلم أننا لا نواجه مجرماً سهلاً، بل نواجه أعظم أدمغة في الشرق والغرب.

لم أرغب في سماع هذه الإجابة، وكنت فقط أحاول استدراج بوارو من أجل الإفصاح عن بعض خطواته اللاحقة في تعقب الخصوم، لكنني فشلت لأنه قابلني بعادته المعروفة: التكتم الشديد في كل ما يفكر بتنفيذه في المستقبل، وتركني

في جهل مطبق كما يحصل دائماً.

لقد ثارت لديّ شكوك حول اتصالات محتملة يجربها مع الاستخبارات السرية في الهند والصين وروسيا، وعرفت من اندفاعه في الثناء على نفسه أنه كان يتقدم في لعبته المفضلة: اكتشاف عقلية عدوّه. وقد تخلى بوارو عن عمله الخاص كله ورفض عروضاً ضخمة، بل كان كثيراً ما يتخلى عن قضايا يشرع في التحقيق فيها بعدما يتبين له أنها ليس لها صلة بنشاط الأربعة الكبار.

الرابح الكبير في القصة كلها كان المفتش جاب الذي اكتسب شهرة كبيرة لا نستطيع إنكارها من قدرته على حل كثير من المعضلات التي يعود الفضل في نجاحه فيها إلى تلميح بوارو الذكي. وفي المقابل كان جاب يمد بوارو بكثير من الأخبار اللازمة في قضاياها، وعندما عُيّن مسؤولاً في القضية التي سمّتها الصحف «لغز الياسمين الأصفر» طلب من بوارو أن يذهب لينظر فيها إن كان يهمه ذلك.

وعلى إثر تلك الرسالة وجدنا نفسينا وحدنا في مقصورة قطار ينعطف بعيداً عن دخان لندن وغبارها متجهاً إلى بلدة ماركت هاند فورد الصغيرة في مقاطعة ورشسترشاير، حيث مكان اللغز.

سألني بوارو وهو يتكئ في مقعده في مقصورة القطار: ماذا تظن في هذه المشكلة يا هيستنغز؟

لم أتسرع بالجواب، بل حاولت أن أبقى حذراً وأجبت بكلمات عامة ليس لها معنى محدد، قلت: كل شيء يبدو معقداً.

فقال بمزاح: نعم، أليس كذلك؟

- إن اندفاعنا بهذه السرعة يدل على اعتقادك أن وفاة السيد باينتر كانت جريمة قتل لا انتحاراً ولا حادثاً عرضياً.

- لا، لا يا هيستنغز، أنت تسيء فهمي. هب أن هذا صحيح، فلا بد من كشف كثير من الملابسات والظروف الغامضة.

- هذا ما قصدته عندما قلت إن كل شيء يبدو معقداً.

- إذن دعنا نستعرض حقائق القصة بمنهجية وهدوء. أعد سردها عليّ يا هيستنغز بوضوح وترتيب.

بدأتُ أسرد أحداث القصة بنظام ومنهجية قدر استطاعتي: نبدأ بالسيد باينتر. إنه في الخامسة والخمسين، غني مثقف كثير الأسفار، لكنه ضاق في سنواته الأخيرة بالسفر فعمد إلى الاستقرار بعد أن اشترى بيتاً صغيراً في ورشسترشاير قرب ماركت هاند فورد، وأراد أن يفرغ نفسه للكتابة، ثم أرسل إلى ابن أخيه الأصغر يقترح عليه أن يأتي ليسكن معه في منزله «كروفت لاندز». وفرح ابن أخيه بهذا الرأي، وكان فناناً مفلساً، فعاش مع عمه نحو سبعة أشهر إلى أن وقعت المأساة.

قال بوارو بهمس: أسلوبك روائي جذاب كأنك تقرأ من كتاب.

أكملت القصة بحماسة متجاهلاً تعليق بوارو: وكان يعمل لدى باينتر في كروفت لاندز ستة من الخدم، بالإضافة إلى خادمه الصيني الخاص آه لِنغ.

همس بوارو مستغرقاً في التفكير: الخادم الخاص الصيني آه لِنغ؟

أكملت قائلاً: يوم الثلاثاء من الأسبوع الأخير اشتكى السيد باينتر ألماً معويماً بعد العشاء فأرسل أحد خدمه ليحضر الطبيب، وعندما حضر الطبيب استقبله السيد باينتر في مكتبه رافضاً أن يذهب إلى السرير. ولم يعرف أحد ما جرى بينهما من حديث، إلا أن الدكتور كوينتين طلب مقابلة مدبرة المنزل وأخبرها أنه أعطى السيد باينتر إبرة تحت الجلد لأن قلبه في ضعف شديد، وأوصى بأن لا يزعجه أحد، ثم بدأ بأسئلة كثيرة عن الخدم: متى عملوا هناك ومن أين جاؤوا؟...

أجابت مدبرة المنزل عن أسئلته بقدر استطاعتها، وكانت تعثرها الحيرة والدهشة من مغزى تلك الأسئلة. في اليوم التالي وقع أمر مرعب، فبينما كانت إحدى الخادومات تتجول في المنزل شمّت رائحة لحم محترق مقززة، وحين بحثت عن مصدر الرائحة عرفت أنها من مكتب سيدها، فحاولت فتح الباب لكنها وجدته مقفلاً من الداخل، وبمساعدة جيرالد

والرجل الصيني تم اقتحام المكتب ليجد القوم أنفسهم أمام منظر رهيب: لقد سقط السيد باينتر في موقد الغاز وقد احترق رأسه ووجهه حتى ليكاد يستحيل التعرف إليه!

في ذلك الوقت لم ينشأ أيّ اشتباه بعمل جنائي، وإن لم يكن بُدُّ من لوم أحد فأولى الناس باللوم هو الدكتور كويتين الذي حقن مريضه مخدراً وتركه في تلك الحالة الخطيرة. بعد ذلك كُشف أمر يثير الفضول. كانت على الأرض عند الكرسي الذي كان يجلس عليه الرجل العجوز صحيفة ملقاة يبدو أنها انزلقت عن ركبتيه، وقد كُتبت عليها بخط يد كبير ضعيف بضع كلمات، ووُجد إصبع السبابة في اليد اليمنى للضحية ملطخاً بالحبر. لا بد أن الضحية كان في حالة ضعف شديد فلم يَقوَ على الإمساك بالقلم، فغمس سبابته في الحبر وكتب هاتين الكلمتين على سطح الصحيفة التي كانت بين يديه، والكلمتان واضحتان تماماً: «ياسمين أصفر».

وقد لوحظ أن جدار المنزل كان ينمو عليه الياسمين الأصفر، وهذا ما دعا إلى القول بأن رسالة الاحتضار ذات علاقة بذلك النبات، مما يوضح أن عقل العجوز كان يخرف، لكن الصحف جعلت من الحادثة قصة مثيرة وأسمتها «لغز الياسمين الأصفر»، وإن لم تَبْدُ مسألة مهمة بالنسبة لي في الحقيقة.

قال بوارو: أتقول إنها غير مهمة؟ حسناً، فاعلم إذن أنها مهمة جداً.

نظرت إليه بارتياب شديد، فقد عودني على التهكم المرير، ولكنني لم أقرأ السخرية في عينيه فأكملت سرد الأحداث: وبعدها بدأت فصول تحقيق القضية والبحث فيها.

كانت الفكرة الشائعة هي أن المتهم الأرجح هو الدكتور كويتين، فهو لم يكن الطبيب المعتمد للرجل الميت، بل كان طبيباً طارئاً جاء بدل الدكتور بوليثو الذي كان يقضي إجازته بعيداً عن البلدة. قد قيل إن الإهمال هو سبب المأساة الأولى، لكن أقوال الطبيب كانت مختصرة ومثيرة، فقد كان السيد باينتر يشعر بوعكة صحية خفيفة منذ وصوله إلى كروفنت لاند وأشرف على علاجه الدكتور بوليثو، وعندما فحصه الدكتور كويتين أول مرة بدا حائراً تجاه بعض الأعراض، ولدى انفراده بالسيد باينتر أطلععه على أمر غريب، فهو لم يشعر بأي مرض على الإطلاق، إلا أن طعم الكاري الذي أكله على العشاء كان في غاية الغرابة، لدرجة أنه اضطر (وقد استبدّ به الشك) إلى اختلاق بعض الأعدار ليصرف آه لنغ بضغ دقائق تمكّن خلالها من سكب محتويات صحنه في القدر. وعلى الرغم من قوله إنه لم يشعر بالمرض فقد لاحظ الطبيب أن السيد باينتر كان يعاني من أثر الصدمة، فقرّر إعطاءه إبرة سترايكينين.

توقفت عن سرد أحداث القصة قليلاً قبل أن أختتم معلّقاً: أعتقد أن في ذلك تمام القضية، ولا يبقى غير الإشارة إلى النقطة الأساسية في الموضوع، وهي أن الكاري الذي لم يؤكّل قد أخضع للتحليل فُعثر فيه على كمية من الأفيون تكفي لقتل رجلين.

سكتَ أخيراً، فسأل بوارو بهدوء: وما رأيك يا هيستنغز؟

- من الصعب الجزم. قد يكون موته بهذه الطريقة حادثة عرضية، وفي هذه الحالة ستكون محاولة تسميمه في الليلة السابقة مصادفة بحتة.

- لكنك لا تظن ذلك، بل أنت تظن أنها جريمة قتل.

- ألا تعتقد أنت ذلك أيضاً؟

- نحن نفكر بطريقة مختلفة يا صديقي هيستنغز. أنا لن أحاول أن أقرر الآن أي الاحتمالين هو الصواب، القتل المتعمد أو الحادثة العرضية. سيأتي الجواب بنفسه بعد أن نحل لغز الياسمين الأصفر. على فكرة، أنت أغفلت شيئاً هنا.

- تقصد الخطين الباهتين اللذين رُسمتا متعامدين تحت كلمتي «الياسمين الأصفر»؟ لم أظن أن لهما أي أهمية.

- حسناً، دعنا نتقل من لغز الياسمين الأصفر إلى لغز الكاري.

- السؤال هو: من الذي سمّمه؟ ولماذا؟ عندي مئة سؤال تحتاج جواباً. الذي أعد الطعام هو آه لنغ، لكن لماذا يرغب في قتل سيده؟ هل هو عضو في جمعية سرية صينية ربما يكون اسمها جمعية الياسمين الأصفر؟ وماذا عن جيرالد باينتر؟

هزّ بوارو رأسه وقال: نعم، جيرالد باينتر هو وريث عمه، ثم إنه تناول عشاءه في الخارج تلك الليلة.

قلت: ربما دبر الأمر بطريقة ما ثم حرص على تناول
عشائه في الخارج لكي يتعد عن الوجبة المسمومة.

نظر إليّ بوارو نظرة احترام فشعرت بأن تفسيري نال
إعجابها، ومضيت في شرح نظريتي: ثم عاد متأخراً ورأى الضوء
في مكتب عمه فعرف أن خطته فشلت، فدفع الرجل العجوز
في موقد الغاز.

- لكن السيد بايتر كان في صحة جيدة وما كان يمكن
أن يسمح بأن يُحرق حتى الموت دون أن يبدي مقاومة. لا،
هذا الرأي غير موفق.

- حسناً يا بوارو، أظن أنني اقتربت من الحل. والآن
أحب أن أعرف رأيك.

ابتسم بوارو واستنشق نفساً عميقاً، ثم بدأ حديثه قائلاً:
إذا افترضنا أنها جريمة قتل فإن السؤال هو: لماذا اختار القاتل
هذه الطريقة لتنفيذ جريمته؟ لا أرى إلا جواباً واحداً محتملاً:
من أجل إخفاء هوية الرجل القاتل، فقد احترق الوجه حتى لا
يمكنك معرفته.

هتفت معترضاً: ماذا؟! أنت لا تظن...

- لو صبرت لحظة يا هيستنغز، فقد كنت على وشك
القول إنني أختبر هذه النظرية فحسب. هل لدينا أي سبب
يدعونا إلى الظن بأن الجثة قد تكون لرجل آخر؟ هل يمكننا
التفكير بشخص آخر يُحتمل أن تكون الجثة له؟ فكرت في

الاحتمالين فوصلت إلى أن الجواب الراجح هو النفي.

قلت بخيبة أمل: وماذا بعد؟

لمعت عينا بوارو وهو يقول: ثم قلت لنفسي: إن كان في هذه المسألة ما لا أستطيع فهمه فعليّ أن أستمّر في البحث أكثر. لا ينبغي أن أبقى نفسي أسيراً لهاجس الأربعة الكبار.

فجأة قطع سرده المثير وقال متسائلاً: ها نحن نقرب من المحطة الآن، فأين فرشاة ملابسي الصغيرة؟ آه، ها هي هنا. أرجو أن تساعدني في تنظيف ملابسي ومن ثمّ سوف أساعدك في تنظيف ملابسك.

عندما اطمأن بوارو إلى سلامة هندامه عاد يقول: لا ينبغي للمرء أن يُبقي نفسه أسيراً لفكرة واحدة، ومع ذلك فإنني ما زلت تحت سلطان هذه الفكرة! فكّر بالخطين اللذين رسمهما القتيل بجانب كلمتي «الياسمين الأصفر»، الخطين المتعامدين في زاوية حادة، ألا ترى أنهما النصف الأول من الرقم «٤»؟

هتفت بإعجاب: يا لك من عبقري يا بوارو!

- لكن أليس سخيفاً أن أرى الأربعة الكبار في كل مكان؟ على المرء أن يفكر بالاحتمالات الأخرى أيضاً. حسناً، ها هو جاب قادم إلينا.

* * *

الفصل العاشر

تحقيق في كروفت لاندز

رأينا جاب واقفاً على الرصيف ، وعندما وصلنا إليه حيّانا
بابتسامة عريضة وقال: حسناً يا سيد بوارو، لقد كنت على ثقة
أنك ستقحم نفسك في هذا اللغز المحير. إنه لغز من الطراز
الأول، أليس كذلك؟

فهمت من هذا التعليق أن جاب كان حائراً في حل الجريمة
وأنه سرّ بوصول بوراو الذي يرجو أن يساعده في حلها. وما لبثنا
أن انطلقنا في سيارة جاب نحو «كروفت لاندز».

كان البيت أبيض جميلاً تحيط به الأشجار والنباتات
المتسلقة وفيها الياسمين الأصفر اللامع، وكنت أشعر بظلال
من الكآبة تخيم عليه. كان صمت الأشجار موحشاً والورود
تتمايل بحزن كأنما ترثي صاحبه، أما الياسمين الأصفر فكان
يشد العيون، فاسمه كان عنوان اللغز. لكن هل كان الرجل
ذاهلاً حين كتب تلك الكلمات؟ إنها كلمات لا معنى لها ولا
تفيد شيئاً.

ابتسم بوارو وقال: ما الذي تراه يا سيد جاب؟ حادثة
عَرَضِيَّة أم جريمة؟

بدا المفتش مرتبكاً محرجاً أمام سؤال بوارو وقال: إذا
نفينا أثر تلك التوابل الهندية ولم يثبت أنها هي السبب في الوفاة
فإنني أميل إلى الرأي القائل بأنها حادثة عَرَضِيَّة، لأنني أستبعد
أسلوب القتل بوضع رأس رجل حي في النار. ألا ترى أنه كان
سيماً البيت صراخاً؟

قال بوارو يحدث نفسه: آه، لقد كنت أحرق، أحرق، أحرق
ثلاث مرات! أنت أذكى مني يا جاب.

كان بوارو دائماً يمدح نفسه ويقلل من شأن غيره، لذلك
فوجئ جاب بهذا المديح واحمرّ وجهه، وتلعثم بكلمات غير
مفهومة تشير إلى الريبة والشكوك في نفسه في صدق مديح
بوارو له.

دخلنا المنزل متجهين عبر ردهاته إلى الغرفة التي وقعت
فيها المأساة، مكتب السيد باينتر، وكانت غرفة واسعة كُسيّت
جدرانها برفوف ملأى بالكتب القديمة.

نظر بوارو عبر النافذة إلى حديقة خلفية فُرشت أرضها
بالحصباء، ثم سأل: هل كان مزلاج النافذة مفتوحاً؟

- يبدو أن القضية كلها هنا، لأن الطيب أغلق الباب خلفه
عند خروجه، وفي صباح اليوم التالي وُجد الباب مُقفلاً من
الداخل، فمن الذي قفله؟ هل هو السيد باينتر نفسه؟ لقد أكد

آه لنغ أن النافذة كانت مغلقة بالمزلاج، أما الدكتور كوينتين فقال إنه شك في أن النافذة كانت مغلقة، لكن ليس بالمزلاج، على أنه ليس متأكداً، ولو تأكد لأدّى هذا إلى خلل خطير. فإذا كانت جريمة قتل فلا بد أن يدخل القاتل من الباب أو عبر النافذة، فإذا كان من الباب فإنه عمل داخلي، وإذا كان من النافذة فالأرجح أن الفاعل شخص من الخارج. ربما فتحوا النافذة على مصراعيها حين كسروا الباب، والخدمة التي فعلت ذلك تقول إن النافذة لم تكن مغلقة بالمزلاج، لكنها شاهدة سيئة جداً، لا تتذكر إلا ما يُطلب منها أن تتذكره!

- وماذا عن المفتاح؟

- عُثر عليه على الأرض وسط حطام الباب، وقد يكون سقط من القفل عند الاقتحام، وربما أسقطه شخص ما حين دخل، أو لعله دُفع من تحت الباب من الخارج.

- يبدو أن كل شيء عندك يندرج تحت كلمة «ربما»!

مضى بوارو يبحث عن نقطة وسط الركاب، وكان وجهه عابساً مقطباً لأنه لم يجد ما يريد، ثم قال: «إني أمشي في ظلام دامس، كلما لمحت ومضة سرعان ما تنطفئ».

قال جاب بتجهّم: جيرالد الصغير لديه باعث قوي، وأستطيع أن أقول إنه ربما كان متوحشاً متهوراً، فالفنانون لا خلق لهم كما هو معروف.

لم يُبَدِ بوارو اكتراثاً بهجوم جاب القاسي على الفنانين،

لكنه ابتسم ابتسامة ذات مغزى كأنه عرف ما في نفس المفتش وقال له: يا جاب الطيب! أتظن أنك تستطيع خداعي؟ أنا على يقين أن أفكارك تتجه بالشك نحو الرجل الصيني، لكنك تريد أن أساعدك وأنت تخادعني.

انفجر جاب ضاحكاً وقال: هكذا أنت دائماً يا سيد بوارو. نعم، أعترف بأنني أراهن على الشاب الصيني وأشك أنه هو الذي عبث بالكارتي، وما دام قد حاول التخلص من الرجل ولم ينجح فقد كان عليه أن يحاول مرة أخرى.

- لكن السؤال هو: هل حاول ذلك مرة أولى حقاً؟

- الذي يؤرقني هو الباعث. لعله انتقام همجي لا سبب له.

- سؤال آخر: هل وجدتم أثر سرقة؟ هل اختفت أشياء ثمينة؟ جواهر، أموال، أوراق؟

- لا، أعني... ليس تماماً.

أصغيت لكلمتيه الأخيرتين بانتباه شديد، وكذلك بوارو. وأكمل جاب موضحاً: أقصد لم تحصل سرقة، لكن العجوز كان يكتب كتاباً ما، لقد عرفنا عنه هذا الصباح حين وصلت رسالة من الناشرين يسألون عن المخطوطة. وحاولت البحث عنها بمساعدة باينتر الصغير فلم نجد شيئاً. لعله خبأها في مكان ما.

لمعت عينا بوارو بالضوء الأخضر الذي كنت أعرفه جيداً

وسأل: ماذا كان عنوانه؟ أعني... هذا الكتاب؟

- أذكر أن اسمه كان: «اليد الخفية في الصين».

صفر بوارو وقد أخذته النشوة، ثم قال بسرعة: يجب أن أقابل الرجل الصيني آه لنغ.

أرسل جاب في طلب الصيني فجاء يجرجر قدميه متثاقلاً ووضفيرته تتأرجح على ظهره. كان وجهه جامداً لا تلمح فيه أثر العاطفة، وخاطبه بوارو قائلاً: آه لنغ، هل أنت آسف لموت سيدك؟

أجاب بلغة إنكليزية ركيكة: طبعاً أنا آسف جداً، فقد كان رجلاً طيباً.

- هل تعرف من قتله؟

- لا، ولو كنت أعرف لأخبرت الشرطة.

استمرت الأسئلة والأجوبة والوجه الجامد هو هو لم يتغير، وتحدث آه لنغ عن الكاري الذي طبخه بنفسه، وأوضح أن الطاهي لم يكن له دخل به ولم تلمسه أي يد إلا يده هو. تساءلت: هل كان يدرك أين سيقوده اعترافه؟ وقد أبدى دهشته هو أيضاً من فتح النافذة، وأخيراً صرفه بوارو قائلاً: هذا يكفي يا آه لنغ.

ولكنه ناداه حين وصل إلى الباب: وهل تعرف شيئاً عن الياسمين الأصفر؟

- لا، وماذا يجب أن أعرف؟

- ولا عن الإشارة التي كُتبت هنا؟

سأله بوارو وهو يميل برأسه نحو الطاولة وقد لمحت عيناه شيئاً مكتوباً وسط الغبار المتراكم عليها، فقد كُتِبَ بوضوح: رقم «٤».

أصاب الرجلَ الصيني رعبٌ كأنه أصيب برعشة كهربائية، ثم عاد جامداً مرة أخرى وتراجع وهو يكرر إنكاره الشديد.

ذهب جاب يبحث عن باينتر الصغير وتركنا وحدنا، فقال بوارو بحنق: الأربعة الكبار مرة أخرى يا هيسستنغز! لقد كان باينتر جَوَّالاً كثير السفر، وبلا ريب كان يعرف معلومات خطيرة تخص الزعيم والعقل المدبر لمجموعة الأربعة الكبار لي شانغ ين.

- ولكن كيف؟ ومن؟

- انتبه، ها هم قادمون.

كان جيرالد باينتر شاباً لطيفاً ضعيف الجسم تزَيَّن وجهه لحية بينة لطيفة، وكان يضع ربطة عنق غريبة، وقد أجاب عن أسئلة بوارو باستعداد تام. أوضح قائلاً: أكلت العشاء في الخارج مع بعض جيراننا من عائلة ويشرليز.

- متى عدت إلى البيت؟

- في نحو الساعة الحادية عشرة. كنت أحمل معي مفتاح

الباب الخارجي وجميع الخدم كانوا قد ذهبوا إلى النوم، وقد ظننت أن عمي نام أيضاً. أذكر أنني لمحت ذلك المتسول الصيني صاحب القدم الطرية آه لنغ وهو يتحرك بخفة عبر القاعة، لكن ربما كنت مخطئاً.

- هل تذكر آخر مرة رأيت فيها عمك، أقصد قبل أن تأتي لتعيش عنده؟

- آه، لم أره منذ كنت طفلاً في العاشرة بعدما تشاجر مع أبي.

- لكنه استطاع أن يهتدي إليك مرة أخرى ببعض الصعوبة،
أليس كذلك؟

- بلى، وقد رأيت أنا إعلان المحامي في الجريدة عن طريق الحظ.

لم يسأله بوارو أسئلة أخرى. انطلقنا بعدها إلى الدكتور كوينتين، وكانت روايته هي نفسها دون أي إضافة تذكر. قال: يا ليتني أستطيع أن أذكر شيئاً عن النافذة! لكن من الخطورة التفكير في الماضي، فقد يقنع المرء نفسه بوجود أشياء لم تكن موجودة قط. هذه ناحية نفسية، أليس كذلك يا سيد بوارو؟ لقد قرأت عن أساليبك وأنا معجب بك كثيراً. أستطيع أن أؤكد أن الرجل الصيني هو الذي وضع الأفيون في الطعام، ولكنه لن يعترف ولن نعرف نحن أبداً لماذا، لكن وضع رجل في النار لا يليق بشخصية رجلنا الصيني... هذا ما يبدو لي.

عندما مشينا في شارع القرية الرئيسي بعد ذلك علقنا على تلك النقطة قائلاً: هل يمكن أن يكون الخادم الصيني قد سهّل لشخص من العصابة الدخول إلى البيت لتنفيذ الجريمة؟ بالمناسبة، لا بد أن جاب قد وضعه تحت المراقبة؟

قال بوارو: لقد وضع جاب الرجلين تحت المراقبة المكثفة منذ اكتشاف الجثة.

قلت: على الأقل نحن نعرف أن جيرالد باينتر لا صلة له بالجريمة.

قال بوارو: يبدو أنك تعرف عني وعنك!

ضحكت قائلاً: أيها الثعلب العجوز، أنت أبداً لا تعبر عمّا يجول في خاطرك!

- حتى أكون أميناً يا صديقي فإن القضية باتت واضحة في ذهني تماماً، ما عدا كلمتي «الياسمين الأصفر». ومن المؤكد أن هذين الشخصين لا يملكان قدرة على ارتكاب الجريمة معاً، فعلياً أن أقرر: من الذي يكذب؟ وقد فكرت في ذلك، لكن...

كنا عندئذ نمشي في الطريق، وفجأة اندفع بوارو من جانبي إلى مكتبة مجاورة، ثم خرج منها بعد بضع دقائق وهو يحمل كتاباً، وما لبث أن انضم إلينا جاب ومشينا معاً إلى نُزل القرية.

* * *

كان الوقت متأخراً عندما استيقظت صباح اليوم التالي، ونزلت إلى غرفة الجلوس فوجدت بوارو يذرع المكان ذهاباً وإياباً بوجه عابس قلق، وحين رأني صاح وهو يلوح بيده: لا تتكلم معي، أرجو أن تبقى ساكناً حتى أتأكد أن كل شيء على ما يرام وأن الرجل قد اعتُقل. لقد كان فهمي بطيئاً. إن من يكتب رسالة احتضار يجب أن يكتب شيئاً مهماً جداً. الياسمين الأصفر؟ إنه ينمو خارج البيت، لكنه ليس هو المقصود حتماً.

ثم أخرج كتاباً صغيراً وقال: هذا الكتاب أخبرني. اسمع: "الياسمين الأصفر: مركّب جلسميني قلوي، سم فعّال مثل الكونين. الجلسميوم عقّار مسكن فعّال للجهاز العصبي المركزي، فإذا أُخذت منه جرعات كبيرة تسبب الدوار وتضعف القوة العضلية، وقد يحدث الموت بسبب شلل مركز التنفس".

هل تذكر يا هيسستنغز منذ البداية حين أبدى جاب ملاحظته في دفع رجل حي في النار؟ علمت بعدها أن الرجل الذي دُفع إلى النار كان ميتاً.

- لماذا؟ لماذا؟

- يا صديقي، إذا أردت أن تقتل رجلاً بالرصاص وطعته بعد الموت أو ضربته على رأسه لكان واضحاً أن ذلك تم بعد الوفاة، لكن حين يحترق الرأس حتى يصبح رماداً فلا أحد سينجح في اكتشاف سبب الوفاة الحقيقي، ولن يشك أحد أن الرجل الذي نجا من السم أثناء العشاء سيموت في حادثة

تسميم أخرى بعد قليل. مَنْ الذي يكذب؟ كان هذا هو السؤال،
وقررت أن أصدق آه لنغ.

- ماذا؟ هل جنت؟

- هل أنت مدهوش يا هيستنغز؟ إن آه لنغ يعرف بوجود
الأربعة الكبار، كان هذا واضحاً، ولكنه لم يكن يعرف درجة
ارتباط تلك الجريمة بهم حتى تلك اللحظة. لو كان هو القاتل
لاستطاع أن يظل جامداً بوجهه بصورة تامة، لذلك قررت أن
أصدقه وركزت شكوكي على جيرالد باينتر. لقد بدا لي أن رقم
«٤» قد وجد أن التمثل بشخصية ابن الأخ المفقود منذ سنين
سهل جداً.

- ماذا؟! رقم «٤»؟

- لا يا هيستنغز، ليس هو. حالما قرأت عن الياسمين
الأصفر أدركت الحقيقة، لقد وثبت أمام عيني في الحال.

- كما تفعل دائماً، إنها لا تثب أمام عيني أنا أبداً!

- لأنك لا تشغل خلاياك الرمادية. من الذي كانت له
فرصة العبث بالكاري الهندي؟

- آه لنغ، لا أحد غيره.

- لا أحد غيره؟ وماذا عن الطبيب؟

- لقد كان هذا فيما بعد.

- فيما بعد ، نعم ، فعندما ثارت الشكوك في وجبة الكاري الهندي لم يأكل الرجل العجوز منها وحفظها ليعطيها لطيبه المعالج ، وتم استدعاؤه في الحال. بعد ذلك وصل الدكتور كويتين فتولى أمر الكاري وأعطى مريضه حقنة من الستركنين ، وفي الحقيقة هي من الياسمين الأصفر ، وحين يبدأ مفعول الدواء يغادر بعد فتح مزلاج النافذة ، ثم يعود عن طريقها فيأخذ المخطوطة ويدفع السيد بايتتر في النار.

لكنه لم يلتفت إلى الصحيفة التي سقطت على الأرض من بين يدي الضحية. لقد عرف بايتتر أيّ دواء قُدّم له وجاهد لكي يوصل الرسالة التي توضح أن الأربعة الكبار هم المسؤولون عن قتله. من السهل على الدكتور كويتين أن يخلط الأفيون بالكاري ويقدمه للفحص ، وفي أثناء روايته يذكر مسألة الستركنين عَرَضاً ، حتى إذا ما تم كشف موضع الإبرة تحت الجلد يكون السبب معروفاً سابقاً ، وفي الحال ينقسم الاشتباه بين كونه حادثاً وكونه ذنب الرجل الصيني آه لنغ بسبب الكاري الهندي.

- لكن هل يمكن أن يكون الدكتور كويتين هو رقم «٤»؟

- نعم ، ممكن. وبلا شك يوجد طيب حقيقي اسمه كويتين ، وربما يكون في مكان ما خارج البلاد الآن. لقد تنكر رقم «٤» بشخصيته ببساطة ، والتنسيق الذي تم مع الدكتور بوليثو من أجل العمل خلال فترة الإجازة تم تنفيذه كله عن طريق المراسلة.

في تلك اللحظة دخل جاب محمّر الوجه ، وسأله بوارو

باهتمام: هل أمسكت الرجل؟

- لا، وقد عاد بوليثو من إجازته هذا الصباح وتبين أنه
استُدعي بـبرقية لا أحد يدري مَنْ أرسلها. الرجل الآخر غادر
الليلة الماضية، لكننا سنمسك به.

هزّ بوارو رأسه بحزن وهو يقول: لا أظن ذلك.

ثم وبطريقة لاشعورية رسم بيده رقم ٤ على الطاولة بخط
كبير.

* * *

الفصل الحادي عشر

مشكلة شطرنج

في إحدى الأمسيات الهادئة كنت مع بوارو نتناول عشاءنا في مطعم صغير في سوهو عندما انضم إلينا المفتش جاب فجأة، وكان لقاءً ودياً حاراً، فقد مضى وقت طويل لم نلتق به، منذ مسألة الياسمين الأصفر قبل نحو شهر.

قال بوارو موبّخاً: ما هذه الجفوة يا جاب؟ لقد مضت فترة طويلة دون أن نراك أو نسمع عنك شيئاً؟

- لقد كنت في الشمال طوال الفترة المنصرمة. ما أخبار الأربعة الكبار؟ ما زالوا يزدادون قوة، أليس كذلك؟

- أدرك أنك تحاول السخرية يا عزيزي جاب، لكن الأربعة الكبار موجودون.

- آه، لا أشك في ذلك، لكنهم ليسوا على تلك الدرجة الهائلة من القوة التي تراها.

- أنت مخطئ يا عزيزي، فأنا أعتقد أن أعظم قوة شريرة

في العالم اليوم هي الأربعة الكبار. إلى أي نهاية يسرون وماذا يخططون؟ لا أحد يعلم، ولكن لا توجد منظمة إجرامية تضاهي هذه المنظمة، على رأسها أذكى دماغ في الشرق ومليونير أمريكي وعالمة فرنسية، أما الرابع...

تداركه جاب: أعرف ذلك، أعرفه جيداً، لقد أصبح هاجسك الذي لا يفارقك يا سيد بوارو. دعنا نتحدث في شيء آخر، هل تهتم بالشطرنج؟
- نعم، أنا أعبه.

- هل تابعت ذلك الحدث أمس؟ مباراة بين أشهر لاعبين في العالم تنتهي نهاية محزنة مثيرة: لقد مات أحدهما في أثناء اللعبة.

- قرأت الخبر في الصحيفة: البطل الروسي كان أحد اللاعبين، أما الآخر صاحب الحظ السيئ فهو الأمريكي جيلمور ويلسون.

- تماماً، سافرونوف هزم روبستين وتربع على عرش بطولة روسيا قبل بضع سنوات، وأصبح ويلسون بطلاً ثانياً.
- إنها قضية مثيرة حقاً، لكن يبدو أنك تهتم بها اهتماماً خاصاً.

ضحك جاب بارتباك وقال: أصبت يا سيد بوارو، إنني أعرق في حيرة شديدة حقاً. كان ويلسون سليماً معافى ليست

فيه علامة من علامات مرض القلب ، لذا فإن وفاته لا يجوز تفسيرها بهذه السهولة.

سألته: هل تظن أن سافرونوف أبعده عن الطريق؟

لم يكثرث كثيراً لسؤالي وقال: ربما، لكن لا أظن أن اللاعب الروسي يمكن أن يقتل رجلاً من أجل أن لا يُهزم في لعبة شطرنج!

قال بوارو: إذن ما هي فكرتك باختصار؟ من الذي سمم ويلسون ولماذا؟ أنت تشك قطعاً بالسم.

- بالتأكيد، وإلا فلماذا يتوقف القلب فجأة عن الخفقان؟ الطيب يقول إن القلب يتوقف فجأة من تلقاء نفسه، إنه يقول ذلك لتفسير الوفاة ظاهرياً، لكنه هو نفسه ليس مقتنعاً في الحقيقة.

- متى ستُشرِّح الجثة؟

- الليلة، وربما نكشف بعض الأسرار. لقد كانت وفاة ويلسون مفاجأة غير عادية لأنه بدأ طبيعياً طوال الوقت، ثم سقط فجأة وهو يتناول حجراً ليحركه.

اعترض بوارو: توجد أنواع قليلة جداً من السموم يمكن أن تعمل بهذه الطريقة.

- صحيح، وهذا ما سيكشفه التشريح. لكن من الذي يريد إبعاد ويلسون عن الطريق؟ إنه رجل مسكين متواضع لطيف،

وقد وصل لتوّه من الولايات المتحدة ولا أظن أن له في هذا البلد أي أعداء.

- أظنك تحوم حول فكرة معينة.

- فكرة تسيطر عليّ: إن السم لم يُقصد به ويلسون، بل الرجل الآخر.

- سافرونوف؟

- نعم، فثمة خصومة قوية قديمة بينه وبين البلشفيين منذ اندلاع الثورة، وقد أشيع أنه قُتل، لكنه -في الحقيقة- نُفِيَ إلى سيبيريا ثلاث سنوات في ظروف قاسية يصعب تصديقها، حتى تغيرت أحواله وتبدلت أوصافه فابيضّ شعره وتهدل منكباه. وعندما هرب أخيراً ولجأ إلى إنكلترا صعبَ حتى على أصدقائه القدامى أن يتعرّفوا عليه، وهو منذ ذلك الحين لا يغادر بيته إلا قليلاً، وقد آثر اعتزال الناس مع بنت أخيه سونيا وخدام روسي في شقة متوارية على طريق ويستمنستر، كأنه ما زال مرعوباً يلاحقه الخوف من خصومه الأقدمين. وهذا سبب رفضه المتكرر للمباراة التي ألحّ عليه ويلسون لخوضها متحدياً، ولولا الحملة الصحفية المثيرة التي فسرت الرفض بأنه منافاة للروح الرياضية لما استسلم سافرونوف بهذه السهولة. إنني مقتنع بأن ويلسون قُتل خطأ.

- ألا ينتفع شخص بموت سافرونوف؟

- حسناً، ابنة أخيه هي الوحيدة التي ترثه. لقد حصل

مؤخراً على ثروة ضخمة تركتها له السيدة جوسبوجا التي كانت زوجة لتاجر سكر كبير في ظل النظام القديم، ويبدو أنها كانت على علاقة حسنة به.

قال بوارو: أين جرت المباراة؟

- في بيت سافرونوف الخاص، لأنه كان مريضاً كما قلت لك.

- وهل شاهدتها عدد كبير من الناس؟

- اثنا عشر شخصاً على الأقل.

هزّ بوارو رأسه بحركة معبرة ثم قال: كم أنت مسكين يا جاب! إن عملك صعب جداً.

- إذا تأكد لي أن السم كان هو السبب فأستطيع أن أقول إنني سأنجح.

- على ضوء افتراضك بأن سافرونوف هو المقصود، هل خطر لك أن القاتل سيحاول مرة أخرى؟

- قطعاً يا سيد بوارو، لذلك وضعت رجلين يراقبان بيت سافرونوف دوماً.

قال بوارو بنبرة فيها معنى الاستخفاف: هذا سيكون مفيداً لو أن الزائر يحمل قبلة تحت إبطه.

- أظن أنك أصبحت مهتماً بالقضية. ما رأيك أن تذهب

معي إلى المشرحة لمشاهدة جثة ويلسون قبل البدء بتشريحها،
فربّما ظهر لك دليل ما.

وافق بوارو، وقد بدا لي أنه أصبح مأسوراً تماماً بالقضية
الجديدة، فقد مضى وقت طويل دون أن يهتم بقضية بعيدة
الصلة بالأربعة الكبار ونشاطهم، وقد شعرت بالسرور لرؤية
بوارو يعود إلى نشاطه الأول.

* * *

حين نظرنا إلى الجسد المسجّى لم نلاحظ أي أثر غريب
ما عدا الندبة التي ظهرت على أصابع يده اليسرى، وقد أوضح
الطبيب أنه حرق وليس جرحاً.

انتقل بوارو إلى الاهتمام بمحتوى جيوبه وقد نشرها أمامنا
أحد رجال الشرطة، ولم يكن فيها سوى منديل ومفاتيح ودفتر
ملاحظات وبعض الرسائل غير المهمة، لكنه وجد شيئاً بسيطاً
أثاره، فقد أمسك باثنين من حجارة الشطرنج وصاح منفِعلاً:
بيدق وفيل! هل كان هذان في جيبه؟

- لا، بل كان يمسك بهما بيده، ولم نستطع نزعهما من
بين أصابعه المتشنجة عليهما تشنجاً قوياً إلا بصعوبة بالغة.
يجب إرجاعهما للدكتور سافرونوف، فهما جزء من طقم جميل
منحوت من العاج.

- اسمح لي أن أعيدهما أنا للسيد سافرونوف، ولعل ذلك
يكون عذراً لكي أزوره.

هتف جاب مستبشراً: إذن تريد الغرق في لجة هذه القضية
كما أرى؟

- نعم، لقد سرّني البحث في هذه المعضلة. لقد استطعت
إثارة اهتمامي يا سيد جاب.

ثم عاد بوارو متجهاً إلى الجثة وسأل: هل لك أن تعرفني
بالضحية أكثر؟

- لا أظن، لم يبقَ شيء.

- ولا حتى أنه أعسر؟

- أنت ساحر يا بوارو، كيف عرفت؟ لقد كان أعسر حقاً،
وهل لهذا صلة بالحادث؟

- ربما لم تكن لهذا الأمر بالحادث أي علاقة.

* * *

في صباح اليوم التالي كنا نشق طريقنا إلى شقة سافرونوف
في ويستمنستر، وقلت متأملاً: سونيا دافيلوف، إنه اسم رائع.

سمع بوارو حديثي، فألقى عليّ نظرة يائسة ثم قال: أنت
هكذا دائماً، رومَنسي تماماً! لكن حظك سيكون سعيداً إذا
ظهر أن سونيا دافيلوف هي صاحبتنا الكونتيسة فيرا روساكوف.

حين سمعت الاسم أصابتنني هزة واكفهرّ وجهي وأعادتنني
الذاكرة إلى أشد فترات الحرج في حياتي، لكن بوارو تدارك

بسرعة: لا، لا يا هيسنغز، إنما هي نكتة. لا أظن أن أصابع الأربعة الكبار وصلت إلى هنا.

فتح الباب خادماً ذو وجه متجهم كأنما نُحت من خشب لا انفعال فيه ولا يكاد يبدي استجابة لأي مؤثر، وقدّم بوارو بطاقة كتب عليها جاب بضع كلمات تعريفية، وبعدها تم إدخالنا إلى غرفة المجلس. وكانت غرفة واسعة منخفضة السقف، على جدرانها ستائر فخمة وتملاً زواياها تحفٌ ثمينة، وكانت الأرض مفروشة بالسجاد الفارسي الرائع.

اتجهتُ نحو إحدى التحف أتفحصها، وقد كانت ذات قيمة عالية. وحين التفتُ نحو بوارو لأحدثه وجدته منبطحاً على الأرض وأصابعه تعبت بسجادة فارسية وعيناه تمعنان النظر باهتمام بالغ، فخطر لي أن السجادة الجميلة تلفت النظر حتى تحوز هذا الاهتمام فقلت: هل هي قطعة نادرة؟

- السجادة؟ إنها قطعة رائعة، ولكنني أبحث عن شيء آخر، إبرة كبيرة أُدخلت عمداً في وسطها. الإبرة ليست هنا الآن لكن الثقب الذي أحدثته واضح جداً.

صوت امرأة من خلفنا جعلني ألتفت بسرعة نحوها بينما قفز بوارو على قدميه برشاقة، وكانت هي تقف في مدخل الغرفة وعيناها علينا. كانت متوسطة الطول ذات شعر أسود قصير، ويبدو أنها لا تتقن الإنكليزية تماماً.

قالت: عمي مريض وأخشى أنه لن يستطيع مقابلتكم.

- هذا مؤسف. هل تتلطفين بإجابتنا عن بعض الأسئلة؟
أنت الآنسة دافيلوف، أليس كذلك؟

- بلى، أنا سونيا دافيلوف. ما الذي تريد معرفته؟

- إنني أتابع التحقيق في الحادث المحزن الذي أدى إلى
وفاة السيد ويلسون، هلاً أخبرتنا بتفاصيله؟

- لقد مات بسبب توقف قلبه أثناء اللعب في المباراة.

- هيئة التحقيق غير متأكدة من هذا السبب كما يبدو يا
آنسة.

ارتعدت الفتاة، وبدرت منها حركة تنبئ بخوفها وصرخت:
إذن لقد كان إيفان محقاً؟ إنها الحقيقة. يا إلهي!

- من هو إيفان؟ وما هي الحقيقة؟

- إيفان هو الذي فتح لكما الباب. لقد أخبرني أن جيلمور
لم يمت موتاً طبيعياً بل مات مسموماً، ولم يكن هو المقصود.

- لم يكن هو المقصود؟

- أجل، كان المقصود هو عمي.

- لكن من الذي يريد تسميم عمك يا آنسة؟

- لا أعرف. إنني أعيش في الظلام وعمي لا يثق بي،
وربما يكون هذا طبيعياً لأنه لم يرني إلا وأنا طفلة صغيرة، وقد

جئت الآن لأعيش معه في لندن، وكل ما أعرفه أنه يعيش في رعب دائم. إنه يخاف شيئاً ما، إن روسيا ملأى بالجمعيات السرية، وقد سمعت إحدى مكالماته.

مالت برأسها نحو بوارو وهمست: هل سمعت شيئاً عن جمعية تسمى «الأربعة الكبار»؟

نظر إليها بوارو بدهشة وهتف: ماذا؟! هل تعرفين الأربعة الكبار يا آنسة؟

- إذن فهي جماعة حقيقية؟ لقد سمعت إشارة عنها وسألت عمي بعد ذلك فلم أر رجلاً خائفاً مثله، فقد شحب لونه وارتجف عندما سمع هذا الاسم. لقد كان يخاف منهم خوفاً عظيماً، أنا متأكدة من ذلك. لا بد أن ويلسون قُتل خطأ.

همس بوارو: الأربعة الكبار، دائماً الأربعة الكبار... إنها مصادفة مذهلة حقاً! إن عمك ما زال في خطر ويجب أن أنقذه. أعيدي عليّ الآن سرد أحداث الواقعة: رقعة الشطرنج وكيف كان يجلس الرجلان وأين؟ أريني كل شيء.

اتجهتُ إلى جانب من الغرفة وأحضرت طاولة صغيرة بدا سطحها رائعاً مرصعاً بمربعات من الفضة واللون الأسود على هيئة رقعة الشطرنج، وقالت: وصلت هذه الطاولة إلى عمي هديةً قبل بضعة أسابيع مع رجاء حثيث أن يستعملها في المباراة القادمة التي كان سيلعبها، وكانت في وسط الغرفة هكذا.

فحص بوارو رقعة الشطرنج بصورة مبالغاً: من الأطراف

إلى الأسفل، ورأيت في ذلك بعض المبالغة. ولم يسألها أي سؤال من الأسئلة التي كنت أشعر بأهميتها في التحقيق، وشعرت أن أسئلته عديمة الجدوى ولا مغزى لها، وأيقنت أن ذكر اسم الأربعة الكبار قد جعله يفقد توازنه!

ثم طلب أحجار الشطرنج وأخذ يفحصها بطريقة آلية، ثم همس وهو شارد الذهن: طقم رائع حقاً.

لم يسألها عن المشروبات التي قُدمت ولا عن الأطعمة ولا سأل عن الأشخاص الحاضرين، وتنحنحت بتكلف وأنا أسأله: ألا تظن يا بوارو هذه المرة...

تداركني بوارو بسرعة قائلاً وهو يشير بيده نحوي: لا تظن يا صديقي واترك الاستنتاجات لي. يا أنسة، هل يستحيل تماماً رؤية عمك ولو بضع دقائق؟

ابتسمت ابتسامة باهتة ثم قالت: سيقابلك، نعم. إن دوري هو أن أقابل جميع الغرباء أولاً قبل المقابلة لأسباب أنت تعلمها.

اختفت في الغرفة المجاورة لبعض الوقت ونحن نسمع صوت الهمس، ثم عادت لتقودنا إلى سافرونوف.

كان رجلاً مهيباً يستلقي على أريكته، طويلاً هزيلاً ذا حواجب كثة متهدلة على عينيه ولحية بيضاء ووجه بدت فيه علامات الضنك والقسوة التي خلفها الزمان، وكان رأسه ضخماً. إنه لاعب شطرنج عظيم، فلا بد أن له دماغاً واسعاً يملأ هذا الرأس الضخم.

انحنى بوارو له وقال: سيدي، هل لي أن أتحدث إليك قليلاً على انفراد؟

التفت نحو ابنة أخيه قائلاً: اتركينا قليلاً يا سونيا.

قال بوارو بعد انصراف الفتاة: دكتور سافرونوف، لقد حصلت أخيراً على ثروة ضخمة، فمن سيرثك؟

- لقد كتبت وصية أترك فيها كل شيء لابنة أخي سونيا.

- لكنك لم ترّها منذ فترة طويلة، منذ أن كانت طفلة، وأظن أن من السهل أن تتحلل أيُّ فتاة هذه الشخصية.

فوجئ سافرونوف بهذا الرأي، لكنه لم يعلق، فمضى بوارو قائلاً: يكفي أن أعطيك إشارة تحذير فقط، هذا ما أريد. لكن هل لك أن تصف لعبة الشطرنج في ذلك المساء؟

- كيف تريد أن أصفها لك؟

- حسناً، أنا لست خبيراً في الشطرنج، لكنني أفهم أن لديكم عدة طرق معتادة للبدء أو الافتتاح كما تسمونه.

ابتسم سافرونوف ابتسامة خفيفة وقال: آه، نعم. ابتداءً ويلسون بطريقة لوبيز، وهي إحدى أسلم البدايات التي يستخدمها اللاعبون بصورة متكررة في المباريات.

- كم كان قد مضى على اللعبة عندما وقعت المأساة؟

- لقد حدث ما حدث بعد النقلة الثالثة أو الرابعة، عندما

وقع ويلسون فوق الطاولة بشكل مفاجئ.

نهض بوارو لكي يغادر وسأل بغير اكتراث: هل أكل أو شرب شيئاً؟

- بعض الصودا، على ما أعتقد.

تريث بوارو على عتبة البيت وهو يهم بالخروج ثم سأل:
هل تعرف من يسكن تحتك؟

- السيد تشارلز كينغويل عضو البرلمان، لقد استأجر
الشقة مفروشة مؤخراً.

- أشكرك يا دكتور.

* * *

خرجنا إلى الشارع وقد أطلت علينا شمس الشتاء من بين
الغيوم بوهج بارد، فانفجرت في بوارو: حسناً، في الحقيقة لا
أظن أنك أبليت بلاء حسناً هذه المرة يا بوارو، وقد ظهر لي
أن أسئلتك كانت غير مناسبة.

- هل تعتقد ذلك يا هيستنغز؟ ماذا كنت أنت ستسأل؟

حاولت أن أفكر بصياغة سؤال، وأوضحت لبوارو وهو
ينصت إليّ باهتمام مريب حتى وصولنا إلى البيت تقريباً حيث
علق ببرود: سؤال بارع جداً، لكنه غير لازم.

صحت به: غير لازم، وهل...

فتح الباب ودخل إلى الغرفة فالتقط رسالة كانت على الأرض وقد مُرّرت من تحت الباب. قال: إنها من جاب كما توقعت، رسالة مختصرة تفيد بأنه لم يجد آثار السم... وهكذا ترى أن أسئلتك التي وددتَ لو طرحتها لا لزوم لها.

- هل خمنت هذه النتيجة من قبل؟

- عندما تعمل بنجاح لا يسمى الأمر تخميناً.

- هل تريد أن نتجادل في أمور تافهة؟ هل تنبأت بهذا؟

- نعم.

- لماذا؟

أخذ بوارو حجر الفيل الأبيض من جيبه ثم رفعه بين أصابعه، فصرخت فيه منفِعلاً: لماذا لم تُعده إلى الدكتور سافرونوف؟

- أنت مخطئ في ظنك يا صديقي. ذلك الفيل ما زال في جيب الأيسر، أما هذا فهو فيل اللعبة الآخر، وقد أخذته من علبة الأحجار وأنا أفحصها.

حتى تلك اللحظة لم أفهم حركات بوارو تلك، وسألته حائراً: ولكن لماذا أخذت الحجر الآخر؟

- لكي أقارن بينهما. إنهما متشابهان تماماً في الظاهر، ولكن يجب عدم التسرع بالاستنتاج. أرجو أن تتكرم بإحضار

ميزاني الصغير لو سمحت.

بعد أن وزن الفيلين بعناية التفت إليّ ووجهه يشعّ بفرحة الظفر: نعم، نعم، هذا صحيح، من المستحيل خداع هيركيول بوارو!

ثم أسرع نحو الهاتف وسأل: هل هذا هو جاب؟ هيركيول بوارو يتكلم. راقب الخادم إيفان ولا تدعه يهرب، احذر أن يفلت من يديك مهما كان الثمن. كما أقول لك...

ثم التفت إليّ قائلاً: حتى الآن أراك لم تفهم الحقيقة يا هيستنغز. حسناً، سأشرح لك: إن ويلسون لم يُقتل بالسم، بل قُتل بالصعقة الكهربائية. سلك معدني دقيق يمر في وسط هذا الحجر، وقد أُعدت الطاولة من قبل ووضعت بعناية فوق بقعة محددة على الأرض، وعندما وضع الفيل فوق إحدى المربعات الفضية انتقل التيار الكهربائي إلى جسم ويلسون فقتله على الفور. لقد كانت الطاولة الخاصة مُعدّة لهذا الغرض بعناية. الطاولة التي فحصتها كانت نسخة أخرى مشابهة، وقد استُبدلت، لكن بقي الحرق هو العلامة الوحيدة على يد ويلسون اليسرى. ألا تذكر أنه كان أعسر؟ الأمر تم في البيت الأسفل، لكن أحد الشركاء على الأقل كان في بيت سافرونوف. لا بد أن الفتاة تعمل مع الأربعة الكبار، ولعلها تعمل لكي تراث أموال سافرونوف.

- وإيفان؟

- أشك بقوة في أن إيفان ما هو إلا رقم «٤» الشهير، فهو

قادر على تمثيل أي دور ببراعة وسهولة.

تذكرت أدواره السابقة: حارس المصحة العقلية، الجزار، الطبيب اللطيف... كلهم رجل واحد، لكن لا يشبه أحدهم الآخر. ثم قلت في النهاية: هذا مذهل! كل شيء كان مُعدّاً، ولعل سافرونوف شعر بالخطر مما دفعه إلى التهرّب من المباراة.

نظر بوارو إليّ نظرة عميقة، ثم أخذ يجوب الغرفة ذهاباً وإياباً، وفجأة التفت نحوي وسألني: هل لديك كتاب عن الشطرنج يا صديقي؟

بحثت عن الكتاب، وبعدما عثرت عليه سلمته له فأمسك به وغاص في كرسيه الضخم يقرأ فيه. بعد نحو ربع ساعة رنّ الهاتف، وكانت مكالمة من جاب الذي قال: لقد غادر إيفان الشقة وهو يحمل رزمة كبيرة، قفز إلى سيارة تنتظره وبدأت المطاردة، وكان يحاول تضليل متعقبه، وفي النهاية عندما ظن أنه نجح سار بسيارته نحو بيت كبير في هامستيد. وقال جاب إن الشرطة يحاصرون البيت.

أعدت محتويات المكالمة على مسمع بوارو، فحدّق إليّ ذاهلاً مما جرى، ثم فتح الكتاب عند طريقة لوبيز في الافتتاح وقال: انظر، لقد كانت النقلة الثالثة إلى المربع الأبيض هي التي قتلت جيلمور وبلسون. هل ينبئك هذا بشيء يا هيستغز؟

لم أفهم مراد بوارو فصمّتُ حائراً، وانطلق هو شارحاً نظريته: توجد دائماً طريقتان للنظر إلى الأمور. افترضْ يا

هيسْتَنز أنك سمعت -وأنت جالسٌ على هذا الكرسي- صوت الباب الأمامي وقد فُتِح وأُغلق، فماذا تستنتج؟

- لا بدّ أن شخصاً قد خرج. هذا ما سيتبادر إلى ذهني.

- هذا أحد الاحتمالين فقط، والاحتمال الآخر ليس أقلّ شأنًا: ربما كان ذلك الشخص قد دخل. أرايت: على نفس المقدمة بُني استنتاجان يناقض أحدهما الآخر! ولكنك إذا سرت في الاتجاه الخطأ فلا بدّ أن يظهر لك تناقض ما يدلك على أنك في الطريق غير الصحيح.

قلت: وماذا يعني كل هذا يا بوارو؟

قفز بوارو على قدميه فجأة ثم صرخ بعنف: هذا يعني أنني كنت غيباً ثلاث مرات! أسرع، أسرع إلى شقة سافرونوف لعلنا نصل في الوقت المناسب.

انطلقت بنا سيارة أجرة مسرعة، ولم يُجب بوارو على أسئتي في الطريق. عندما وصلنا صعدنا الدرج مسرعين، ولم نلق جواباً على قرع الجرس وطرق الباب مراراً، وعندما أصغنا السمع سمعنا صوت أنين مكتوم ينبعث من الداخل.

كان حارس العمارة يملك مفتاحاً، وبصعوبة أفتح الباب. ودخلنا مسرعين فإذا رائحة الكلوروفوم، ووجدنا سونيا دافيلوف مكّمة ومقيدة وحشوة قطنية مشبعة بالكلور تسد أنفها، فأسرع بوارو لينقذها واتصل بالطبيب الذي وصل بسرعة

وتولى العناية بها، ثم جرى تفتيش الشقة فلم نجد الدكتور سافرونوف.

سألت: ما معنى هذا؟

- هذا يعني أننا ظننا الظن الخطأ منذ البداية. لقد كنّا أمام استنتاجين متساويين فاخترنا الاستنتاج الخطأ. ألا تذكر استنتاجك بشأن الباب الذي فُتح وأُغلق؟ كان يمكن لأي واحدة أن تنتحل شخصية سونيا دافيلوف لأن عمّها لم يَرها منذ سنوات طويلة.

- نعم؟ وماذا في ذلك؟

- حسناً، والعكس أيضاً صحيح: أيضاً يمكن لأي واحد أن ينتحل شخصية العم.

- ماذا؟!!

- لقد مات سافرونوف فعلاً عند اندلاع الثورة، أما الرجل الذي زعم أنه تحمل المشاق وهرب، الرجل الذي "تغيّر كثيراً حتى فشل أصدقاؤه في التعرف عليه"، الرجل الذي زعم أنه حصل على ثروة ضخمة...

- من كان هذا الرجل؟

- رقم «٤». لقد كان خائفاً عندما أخبرته سونيا أنها استمعت لإحدى مكالماته! مرة أخرى استطاع الانزلاق من بين أصابعي. لقد أيقن أنني سأسير في الطريق الصحيح في النهاية،

وقد استطاع تحويل السندات ورقاً نقدياً ثم فرّ بها بعد أن قام بمحاولة حبس سونيا دافيلوف وبعد أن أرسل إيفان الأمين في مطاردة تصرف عنه الانتباه.

- لكن من الذي أراد أن يقتله؟

- لا أحد. لقد كان ويلسون هو الضحية المقصودة منذ البداية. رقم «٤» لم يكن يعرف اللعبة، ومن أجل هذا كان يرفض المباراة، وقد حاول جاهداً الإفلات منها، وحين فشل وضع نهاية مأساوية لويلسون المسكين. ويلسون كان مولعاً بطريقة لوبيز، لذلك خطط رقم «٤» لموته في الحركة الثالثة قبل أن يتورط في أي صعوبات دفاعية.

حاولت أن أناقش بوارو بصلاية وحزم: ولكن ألا توجد طريقة لتجنب المباراة دون اللجوء إلى القتل، كأن يزعم أن الطبيب منعه من اللعب مثلاً؟

- بلى يا هيستنغز، لديه طرق أسهل، لكنك لا تفكر بعقل رقم «٤»، المدمر الذي لا يحرص على تجنّب إزهاق الأرواح، بل كل ما يشغله أن يمثل دور اللاعب الكبير، فليس غريباً أنه حاول مراقبة اللاعبين وزار عدة مباريات ليقلد الحركات الاستعراضية، وهو في نفسه يضحك لأنه لم يكن يتقن غير حركتين أو ثلاث حركات! هذه هي نفسية رقم «٤» وهذا هو أسلوب تفكيره.

هزرت رأسي استهجاناً وقلت: حسناً، أعتقد أنك محق،

لكني لا أفهم كيف يغامر شخص هذه المغامرة ويخاطر بحياته
في حين يستطيع تحقيق ما يريد بطريقة أسهل.

ضحك بوارو ضحكة خفيفة وهو يقول: وأين تكمن
المخاطرة؟ هل كان يمكن لجاب أن يحل اللغز؟ إن رقم «٤»
يثق بنفسه، ولولا أنه ارتكب خطأ صغيراً لما تعرض لأي نوع
من الخطر.

- وما هو الخطأ الصغير الذي ارتكبه؟

- لقد غفل عن الخلايا الرمادية يا صاحبي، خلايا
هيركيول بوارو.

هززت رأسي وفكرت بصمت: لا شك أن لبوارو مناقب
حسنة كثيرة، لكن التواضع ليس واحداً منها.

* * *

الفصل الثاني عشر

المصيدة

كان الضباب يلف لندن في يوم شتاء قارس من أيام شهر كانون الثاني (يناير) عندما كنا نجلس متقاربين عند الموقد، وكنت أحس أن بوارو يرمقني بنظرات متتابعة وعلى شفثيه بسمه لم أستطع فهم معناها، فقلت له: هلاً شاركتني بأفكارك يا صديقي؟

قال: لا عليك، إنما كنت أرجع بذاكرتي إلى الماضي قليلاً، حينما جئت لزيارتي في منتصف الصيف الماضي، وقد أخبرتني يومئذ أنك تود قضاء إجازتك معي وهي شهران على أبعد حد.

- لكنني لا أذكر إن كنتُ ذكرتُ مدة معينة.

- لقد ذكرتُ ذلك حقاً يا صديقي، فلماذا غيرتَ خطتك؟

- نعم، لكن هل خطر ببالك أنني سأترك صديقي بوارو يصارع هذا الأخطبوط العملاق، الأربعة الكبار، وأمضي؟

- هذا ما ظننته، أنت صديق مخلص بالفعل وقد سُررت بصحبتك. لكن ماذا ستقول لزوجتك، سندريلا الصغيرة كما يحلو لك تسميتها؟

- إنها لا تعرف ما يجري هنا، لكنها تفهم دوري ولن تقبل أن أدير ظهري لصديق.

- نعم، أنا واثق من هذا، فهي زوجة ودية. لكن رحلتنا طويلة يا صاحبي.

هززت رأسي وأنا أشعر ببعض الإحباط ويكاد اليأس يسري في أعماقي رويداً رويداً، ثم حاولت التعبير عن مشاعري بتساؤلات: لقد مضى على هذا الصراع نحو ستة أشهر، وسؤالي: أين نحن الآن؟ أشعر دائماً أن علينا أن نفعل أكثر يا بوارو.

- حماسك تعجبني يا صديقي، لكن ماذا تريدني أن أفعل؟

هذا السؤال يدعو إلى الحيرة وجوابه ليس سهلاً، لكنني حاولت الإصرار بعناد، فبادرت إلى إجابة متزنة تحمل بعض جوانب القوة. قلت: علينا أن نبادر نحن بالهجوم ولا ننتظرهم، وأظن أن ما أنجزناه في الحقبة الفائتة شيء قليل.

- ما تم إنجازه أكبر مما تظن يا هيستنغز. لقد كشفنا هوية رقم «٢» ورقم «٣» وعرفنا الكثير عن نفسية وأسلوب رقم «٤».

ربما لم يَحِن الوقت الذي أستطيع فيه توجيه التهمة للسيد ريلاند أو السيدة أوليفيه، لكن أناساً كباراً وقعت في نفوسهم شكوك فيهما، كاللورد ألدينغتون الذي عرف شيئاً كثيراً عن الأربعة الكبار. إن الأربعة الكبار ما زالوا يستطيعون الحركة والعمل، لكن كشافاً قوياً يلاحقهم ويفضح أفعالهم.

- وماذا عن رقم «٤»؟

- ألم أقل لك إننا بدأنا نفهم أسلوبه وكيف يفكر؟ يمكن أن تسخر من هذا الكلام، لكن فهم نفسية شخص ما ومعرفة ماذا سيفعل في كل الظروف هو مفتاح النجاح، وفي حين أزداد معرفة بدوره فإنني أسعى أن لا يعرف عني شيئاً. هو في الشمس ونحن في الظل، وهم في كل يوم يزدادون خشية مني وخوفاً.

- على كل حال فقد ابتعدوا عنا الآن، وصار الخطر بعيداً عنك والطريق خالياً من الكمائن.

- لا، بل إن هذا السكون يقلقني، لا سيما وأن عندهم طريقين واضحين ليصلوا إلينا، وأعتقد جازماً أن شيئاً قد تبين لهم. لا أدري، هل فهمت قصدي؟

لم أفهم كلامه، ونفذ صبر بوارو فقال بضجر: حسناً، أنا محتاج إلى نزهة في الخارج على الرغم من برودة الطقس. وعلى فكرة، لا أظن أنك ستقرأ كل هذه الكتب معاً، «مستقبل الأرجنتين» و«مرآة المجتمع» و«تكاثر الماشية» و«اللغز القرمزي» و«الرياضة في جبال الروكي».

ضحكت واعترفت بأن «اللغز القرمزي» هو الوحيد الذي يستأثر باهتمامي في هذا الوقت، فhez رأسه بحزن، ورجاني أن أعيد بقية الكتب إلى مواضعها وأن أقضي على تلك الفوضى العارمة قائلاً: لماذا تظن أنهم اخترعوا الرفوف؟

ثم خرج بعدما أبدت له اعتذاري بلطف، وتركني في متعتي التي لم يقاطعها أحد في كتابي المختار. ومع ذلك أعترف أنني كنت نصف نائم عندما سمعتُ طرقاتاً على الباب، وإذا السيدة بيرسون تقول: برقية لك يا كاتب.

امتدت يدي إلى الظرف وفتحته بغير اهتمام. كانت البرقية من برونسين، مدير مزرعة الماشية التي أملكها في أمريكا الجنوبية، وكانت على النحو التالي:

اختفت السيدة هيستنغز أمس. يُخشى أن عصابة تُسمي نفسها «الأربعة الكبار» قد اختطفوها. أبلغنا الشرطة برقيةاً لكن لم يظهر أي أثر حتى الآن.

برونسين

تراجعتُ إلى الورا ثم سقطت في المقعد الكبير مصعوقاً وأنا أعيد قراءة البرقية مرة بعد مرة. إن زوجتي مخطوفة وهي الآن بأيدي هذه المنظمة الإجرامية، فماذا أفعل؟ أين أنت يا بوارو؟ من الضروري قدوم بوارو الآن، فهو يستطيع معالجة الموضوع. سأنتظر قدومه قبل أن أحاول القيام بأي فعل، لكن سندريلا في قبضة الكبار الأربعة الآن.

الباب يُطرق مرة أخرى ، السيدة بيرسون من جديد: رسالة لك يا كابتن ، أحضرها رجل صيني بربري يقف أسفل الدرج.

كانت الرسالة قصيرة:

إن أردت رؤية زوجتك فامض مع حامل هذه الورقة من فورك. لا تترك أي رسالة لصديقك وإلا فإنها سوف تعاني أذى كثيراً.

يا إلهي! ماذا سأفعل الآن؟ لا وقت للتفكير ، يجب أن أطيع ، فسندريلا في قبضة الكبار الأشرار. لا بد من الذهاب مع هذا الرجل حيث يقودني. لعله فخ ومصيدة ، نعم ، إنه الأسر الأكيد والموت المحتمل ، لكن ليس لي من الأمر بد ، لا أستطيع أن أتردد.

وكيف أذهب ولم أترك لبوارو كلمة واحدة حتى يبحث عني؟ ترددت أن أكتب أي كلمة وشعرت أن للأربعة الكبار قوة خارقة يستطيعون أن يعرفوا بها كل صغيرة وكبيرة ، وسهل على الرجل الصيني أن يصعد ويتأكد بنفسه. لقد التزمت أوامرهم ، وربما تكون الخادمة نفسها مجنّدة لحسابهم! مع ذلك قررت أن أترك البرقية لعلّ بوارو يدرك تفصيل ما جرى إذا ما اطلع عليها.

وضعت قبعتي على رأسي وانطلقت بسرعة خارج الباب حيث كان الرجل الصيني ينتظر. كان رجلاً طويلاً ذا وجه صارم ، ثوبه قديم لكنه حسن ، وقد انحنى لي بالتحية ، وكان يتقن الإنكليزية فقال: أنت الكابتن هيستنغز؟

- نعم.

- أعطني الرسالة لو سمحت.

كنت قد تنبأت بطلبه فسلمته القصاصه دون تردد.

- وصلتك اليوم برقية من أمريكا الجنوبية، أليس كذلك؟

هنا أدركت عظمة قدرتهم على التجسس والمتابعة. لن
ينفع الإنكار، فقد عرفوا كل شيء!

قلت: بلى، وردتني برقية حقاً.

- هلاً ذهبت وأحضرتها الآن؟

شعرت بالحنق والضيق يكتمان أنفاسي، وركضت على
الدرج مرة أخرى، ثم خطر ببالي أن أفضي بالخبر إلى السيدة
بيرسون التي رأيتها تقف في أعلى الدرج، لكن الخادمة الصغيرة
كانت تقف قربها.

عبرت المجلس بعدما ترددت في إخبارها، وعدلت
عن الفكرة فأخذت البرقية، ثم جاءني فكرة. سوف أترك
علامة يفهمها بوارو. أخذت عن الرف أربعة كتب ونثرتها على
الأرض، سوف يعرف أن ذلك أمر غير عادي عندما يتذكر
محاضراته المقتضبة قبل خروجه عن ضرورة الترتيب. ثم عمدت
إلى مجراف الفحم فملأته ونثرت أربع فحمات في الموقد،
ودعوت الله أن يوفق بوارو لمعرفة هذا الرمز.

ثم تدرجت على الدرج مسرعاً، وأخذ الرجل الصيني

البرقية فقرأها ثم دسّها في جيبه وأشار بحركة من رأسه أن أتبعه.
قادني في طريق طويل ممل. ركبنا القطار مرة والحافلة
مرة أخرى ثم في سيارة أجرة، وكان الطريق إلى الشرق دائماً،
حتى اقتربنا من أحواض السفن فعلمت أنني ذاهب إلى قلب
الحي الصيني.

بدأت أشعر بالخشية، وشعرت بالخوف أكثر حين توقف
مرشدي بعد لفّ ودوران في ممرات وزقاق أمام بيت مُتهاوٍ
خرب. طرقت الباب أربعاً ففتح الباب في الحال رجل صيني آخر
وأذن لنا بالدخول. وشعرت أن إغلاق الباب خلفي كان نعيماً
لآخر آمالي في هذه الحياة. ها أنا ذا في الأسر!

قادني رجل صيني آخر عبر درجات متهاوية نحو
الأسفل، إلى قبو مليء ببراميل خشبية فارغة تفوح منها رائحة
التوابل الشرقية، وشعرت بجوّ الشرق الغريب يحيط بي. أراح
الرجل بضعة براميل فظهرت فتحة أرضية لنفق مظلم، فأمرني
بالدخول، وكان ممراً ضيقاً مظلماً موحشاً يؤدي إلى قبو آخر.

تقدّمني الرجل وضرب على الجدار أربعاً ففتح شق من
الحائط، ودخلنا في ممر قصير يؤدي إلى قاعة مدهشة كأنها
قطعة من قصر من قصور ألف ليلة. غرفة منخفضة جدرانها
مكسوة بالحريز الشرقي والأرض مفروشة بالسجاد الثمين
ومضاءة بصورة باهرة ويعبق الجو فيها بالعطور الشرقية، وكانت
فيها بضع أرائك صينية رائعة.

جاء الصوت من خلف الستارة: هل حضر ضيفنا الكريم؟

أجاب الدليل: إنه هنا يا صاحب السعادة.

- دعه يدخل.

فُتحت الستارة فظهرت أريكة ضخمة ذات وسائد وقد جلس عليها رجل عظيم طويل، يرتدي ثياباً مطرزة جميلة وقد استطالت أظفاره بشكل ملفت للنظر. قال وهو يشير بيده: اجلس يا كابتن هيستنغز، تسرني رؤيتك، وأشكرك على قدومك فوراً وتليبتك لطلبي.

- من أنت؟ هل أنت لي شانغ ين؟

- في الحقيقة لا، أنا واحد من أبسط خُدامه ليس غير. إنني أفعل ما يأمرني كما يفعل عماله الكثيرون المنتشرون في كل مكان، كما في أمريكا الجنوبية مثلاً.

انتفضت من مكاني وصرخت: أين هي؟ ماذا فعلتم بها؟

- إنها في مكان آمن، لم يصبها أحد بأذى... حتى هذه

اللحظة.

أثارت ابتسامته الخبيثة في رعشة، وأدركت أنني أواجه

شيطاناً فصرخت: ماذا تريد؟ المال؟

- اطمئن يا عزيزي الكابتن هيستنغز، فليست لدينا

مخططات للاستيلاء على مدخراتك القليلة. إنك لم تُصب

الهدف، وأظن أن صاحبك لم يكن ليوافقك هذا الرأي.

- أظن أنك أردت أن أقع في شركك، وقد نجحت. ها أنا ذا جئتك وعيني مفتوحة، فافعل بي ما تشاء واطرکها. إنها لا تعرف شيئاً بتاتاً ولن يكون وجودها نافعاً، لقد أمسكتها لتمسك بي وتحقق لك ذلك.

لاحظت أن الرجل يراقب حركاتي بدقة بعينه الصغيرتين وهو يربت على خديه، وقال: لقد ذهبت بعيداً جداً، فالمشكلة لم تُحلَّ يا كابتن. إن القبض عليك ليس هدفاً يقيناً، بل نحن نريد صاحبك السيد هيركيول بوارو.

أطلقت ضحكة سخرية وقلت له: لن تستطيعوا.

لكنه استمر متجاهلاً تعليقي: أرى أن تكتب رسالة إلى صديقك بوارو تقنعه بالمجيء هنا للانضمام إليك سريعاً.

قلت بإصرار وغضب شديد: لن أفعل.

- الرفض عاقبته لا ترضيك.

- تَبَّ لك!

- قد يكون مصيرك الموت.

غالبت رعشة غريبة سرت في جسدي وأجبتته بشجاعة: لن تخيفني تهديداتك، ويحسن أن توفرها لأمثالك من الصينيين الجبناء.

- إنني جاد يا كابتن. للمرة الأخيرة: هل ستكتب هذه الورقة؟

- لن أفعل.

ومن فوره صفق الرجل بيديه تصفيقاً رقيقاً، فإذا باثنين من الخدم انشقت الأرض عنهما ينقضان عليّ ويقيدان ذراعي قبل أن يسحباني إلى إحدى زوايا الغرفة حيث انهارت الأرض من تحتي. بقيت معلقاً من يدي وجسمي مدلى في الشق المظلم أسمع تحتي صوت تلاطم المياه، وسمعت الصوت الهادئ للرجل الجالس على الأريكة: النهر... فكر ثانية يا كابتن. سوف ينتهي أمرك في ثوانٍ معدودة لا غير.

أعترف بأنني لست من أشجع الرجال، وأعترف أن الخوف والرعب سيطرا عليّ وأيقنت أنني أعيش لحظاتي الأخيرة، ولم أملك تهدئة صوتي المرتعش وأنا أردّ عليه: لآخر مرة... لا. اذهب إلى الجحيم.

وأغلقت عينيّ وأنا أدعو دعاء قصيراً.

* * *

الفصل الثالث عشر

الجبان يظهر

تمر بالمرء لحظات نادرة في حياته يشعر فيها بأنه يقف على حافة الموت، وهذا واحد منها، فقد أيقنت أنني أعيش لحظاتي الأخيرة.

لكنني دُهشت عندما وجدت الحارس يعيدني إلى مقعدي أمام ذلك الرجل الذي خاطبني قائلاً: أنت رجل شجاع يا كابتن هيستنغز، ونحن -معشر الشرقيين- نحترم الشجعان ونقدر الشجاعة. يمكن أن أقول إنني كنت أتوقع منك فعل ما فعلت، وهذا ينقلنا إلى الفصل الثاني من المأساة: إنك تَضطرننا إلى اتخاذ مسلك آخر، فهل أنت قادر على احتمال موت امرئ يهملك كثيراً بنفس القدر من الشجاعة؟

أصابتني رعدة قاتلة وشعرت بالرعب يعتريني فقلت بصوت مخنوق: ماذا تقصد؟

- لا أظن أنك نسيت زهرة الحديقة وأنها في قبضتنا.

نظرت إليه نظرة أبله شارد يفيض ألماً وكآبة، فقال: أظن يا كابتن هيستنغز أنك على استعداد لكتابة الرسالة المطلوبة الآن. عندي نموذج للرسالة، ما عليك إلا أن تكتب ما أملكه عليك، واعلم أنك أمام خيارين: حياة زوجتك أو موتها.

تصعب العرق من جيني وأنا أرى نفسي منساقاً لإرادة ذلك المجرم الكبير الذي كان يبتسم بخبث وينطق بنعومة قاتلة: القلم جاهز في يدك، ما عليك سوى أن تكتب، وإذا لم تفعل...
- إذا لم أفعل؟

- إذا لم تفعل فإن تلك السيدة التي تحبها ستموت موتاً بطيئاً. إن سيدي لي شانغ ين يمتّع نفسه في أوقات فراغه باختراع أساليب جديدة وبارعة في التعذيب.
صحت: يا إلهي! أيها الشيطان، هذا لن يكون... إنك لن تفعل ذلك.

- هل أسرد عليك بعضاً من أساليبه؟
أخذ يتدفّق في حديثه بهدوء غير مكترث باحتجاجاتي، حتى سدّدت بيديّ أذنيّ وأنا أصبح فزعاً: هذا يكفي.
- حسناً، خذ القلم واكتب.
- إنك لا تجرؤ...

- كلامك حماقة وأنت تدرك ذلك جيداً. خذ القلم واكتب.

عزيزي بوارو ،

أظن أنني أطارد رقم «٤». لقد جاء رجل صيني بعد ظهر اليوم وأغراني برسالة كاذبة، ولحسن الحظ أدركت لعبته الصغيرة في الوقت المناسب وأفلتُ منه، ثم قررت أن أتعبه بنفسه حتى أشبع فضولي وغروري.

إنني أرسل إليك فتى شاباً ذكياً يحمل إليك هذه الرسالة، فأعطه نصف كراون، لقد وعدته بذلك إن هو سلمها بأمانة، فأنا أراقب البيت ولا أستطيع مغادرته. سوف أنتظر حتى السادسة، فإن لم تأت سأحاول الدخول إلى البيت بنفسه. إنها فرصة ثمينة لا يصح أن نضيعها. وربما لا يجدهك الفتى، ولكن إن وجدك فتعال معه فوراً، واطمس شاربك حتى لا يعرفك من يراقب البيت.

صديقك المتعجل: أ.هـ

كنت أزداد بأساً مع كل كلمة، وشعرت أنها حيلة ماهرة ذكية بارعة. لقد أدركت أهمية جمع المعلومات عن حياتنا بالتفصيل، فقد صاغوا هذه الرسالة بالطريقة ذاتها التي كان يمكن لي أن أصوغها، والاعتراف بأن الرجل الصيني الذي زارني بعد ظهر اليوم أغراني بمصاحبه يذهب بالأثر المرجو لتركيب الكتب الأربعة على الأرض وقطع الفحم الأربع في الموقد. والوقت أيضاً حُدد بذكاء: سوف يندفع بوارو بسرعة

مع دليله البريء المظهر لدى استلامه الرسالة، فإن إصراري على دخول البيت سيدفعه إلى القدوم بأقصى سرعة. لقد أبدى على الدوام ارتياباً غريباً في قدرتي وسوف يخالجه شعور بأنني أندفع إلى الخطر وأنا دون مستوى الحدث فيسرع للتدخل في الوقت الملائم.

شعرت أنني عاجز عن صنع أي شيء ينقذ بوارو. وأخذ الرجل الرسالة فقرأها وهزّ رأسه رضا، ثم أعطاها لأحد الخدم الصامتين فاختمها خلف الستارة المعلقة على الجدار.

والتقط الرجل نموذج برقية سلمها إليّ فقرأت فيها: "أطلق سراح الطائر الأبيض بسرعة"، فتنهدت بارتياح وأنا أسأل: هل سترسلها على الفور؟

ابتسم وهو يهزّ رأسه نافياً: فقط عندما يصبح السيد بوارو في أيدينا، ليس قبل ذلك.

- ولكنك وعدت...

- ربما فشلت هذه الطريقة، وعند ذلك سنحتاج أن يقنعك طائرنا الأبيض ببذل مجهودات أكبر.

ازددت شحوباً وسيطر عليّ الغضب وهتفت: يا إلهي! لو أنك...

- كن مطمئناً. لن تفشل هذه الخطة، سيقع السيد بوارو في أيدينا وأبرّ بقسمي، وحتى ذلك الحين أنت في ضيافتنا،

وسوف يهتم خدمي بتنفيذ رغباتك وتلبية احتياجاتك في غيابي.

* * *

تركوني وحدي في قبو تحت الأرض ، حيث كنت أسمع حركات الخدم وهم يتقلون. وتنازعني الهواجس: قلبي على زوجتي التي تعاني في قبضة هؤلاء الأشرار ، وفي نفسي شعور بالذنب القاتل نحو صديقي بوارو ، ثم إنني أخاف هؤلاء الشياطين الذين اتخذوا الخداع ديناً ولا يردعهم وازع ولا ضمير.

قدّموا لي الطعام والشراب ، إلا أنني أزعته جانباً وقد أصابني الغثيان. ثم ظهر الرجل الصيني مرة أخرى. كان طويلاً جليلاً يرفل في ثوبه الحريري الطويل ، وكان يوجه العمليات بحركات من يده الصفراء.

أخرجوني من القبو إلى الغرفة الأولى ، وكانت قريبة من الشارع يستطيع القاعد فيها مراقبة الطريق من خلال فتحات في الشبائيك. ولمحت عجوزاً يرتدي أسماً بالية يشير بيده إلى المنزل ، فعرفت أنه من العصاة.

قال صاحبنا الصيني: هذا حسن ، فقد وقع بوارو في الفخ ، لقد جاء وحده مع الغلام الذي يرشده. والآن حان دورك يا كابتن ، عليك أن تقف لتظهر أمامه فيراك وتشير إليه ليدخل ، فهو لن يفعل حتى يراك تصنع ذلك.

صحت نائراً: ماذا؟

قال بحزم: تذكّر ثمن الفشل. إذا لم يدخل بوارو فإن

زوجتك ستموت سبعين مرة، هيا بسرعة.

نظرت من خلال الشبابيك بقلب يخفق وإحساس بالغثيان
فعرفت صديقي الذي كان يمشي على طول الجانب المقابل
من الشارع، رغم أن ياقة معطفه كانت مرفوعة واللفاع الأصفر
يغطي أسفل وجهه، لكن تلك المشية هي مشية بوارو وذاك
الرأس البيضوي هو رأس بوارو.

كان بوارو قادماً قطعاً ليساعدني بوفاء وشهامة وهو لا
يشك بأن في الأمر حيلة، وإلى جنبه كان يمشي غلام لندي ذو
وجه متجهم وثوب بال. وتوقف بوارو وهو ينظر ناحية البيت
بينما كان الولد يتكلم بلهفة ويشير.

حان الوقت لألعب دوري، فخرجت إلى القاعة، وبإشارة
من الرجل الصيني فتح أحد الخدم مزلاج الباب، وهمس
عدوي: تذكر ثمن الفشل.

خرجت عند العتبة وأشرت إلى بوارو بيدي، فأسرع يقطع
الشارع ناحيتي قائلاً: آه، إذن فكل أمورك كما يرام يا صديقي؟
لقد بدأت أقلق، هل دخلت البيت؟ هل البيت خال ولا أحد
فيه؟

قلت بهمس اجتهدت أن أجعله مطمئناً: نعم، لا بد أن
فيه طريقاً سريعاً. ادخل ودعنا نفحصه.

عدت إلى العتبة وهمّ بوارو ليتبعني ببراءة، ثم خطر في
بالي خاطر مباغت فصرخت فجأة: ارجع يا بوارو... ارجع من

أجل حياتك. إنه فخ، لا تهتم بي، اهرب في الحال!

في اللحظة التي تكلمت أو صرخت محذراً أمسكت بي يد كأنها كَمَاشَة، وقفز أحد الخدم الصينيين أمامي لكي يمسك بوارو. وقفز بوارو إلى الخلف ورفع يده، ثم فجأة تصاعد دخان كثيف حولي كاد يخنقني، يقتلني، وشعرت أنني أنهار. كان هذا هو الموت!

* * *

عدتُ إلى وعيبي وأنا أتألم ورأسي يدور، فرأيت أول ما رأيت وجه بوارو جالساً أمامي يراقبني بوجه قلق، وحين رأيته أنظر إليه صرخ فرحاً: آه، لقد عاد وعيك. كل شيء جيد يا صديقي المسكين.

- أين أنا؟

- أين؟ في بيتنا.

نظرت حولي. نعم، هذا المحيط أعرفه، وفي الموقد كانت قطع الفحم الأربع التي نثرتها.

- نعم، لقد أحسنت صنعاً، كانت هذه فكرة ممتازة هي وفكرة الكتب. لو أنهم قالوا لي "إن صديقك هيستنغز ليس حاد الذكاء" فسوف أقول: لا، بل أنتم مخطئون.

- إذن فقد فهمتها؟

- نعم، لقد أخذت جذري وأنفقت الوقت اللازم لأرتب

خطتي بإحكام. فكرت: لقد نقلت الأربعة الكبار بالقوة، لماذا؟ ليس لأنهم يخافونك ويريدون أن يبعدوك عن الطريق، لا، بل جعلوك طعاماً ليصطادوا به بوارو العظيم. كنت أنتظر هذا منذ زمن وكنت مستعداً له، فلما وصل ذلك الولد الصغير البريء رسولاً منهم فهمت كل شيء وأسرعت معه. ومن حسن الحظ أنهم سمحوا لك بأن تقف على العتبة، فقد كنت أخشى أن أفشل في العثور عليك بعد أن أتخلص منهم.

قلت بوهن: هل قلت "تتخلص منهم"؟ وحدك؟

- لا شيء من أمرهم يحتاج ذكاء، إذا استعد المرء من قبل فكل شيء عندئذ يهون. هذا هو شعار الكشافة، إنهم يقولون: «كن مستعداً»، أليس كذلك؟ منذ وقت غير بعيد قدمت خدمة لعالم كيميائي كبير كان يعمل بالغازات السامة في أثناء الحرب، فابتدع لي قبلة صغيرة بسيطة يسهل حملها وما عليّ إلا أن أرميها فتفجر، فيتصاعد منها دخان ثم يكون فقد الوعي. وفي الحال صفرت قليلاً فأسرع بعض زملاء جاب (وكانوا يراقبون البيت قبل أن يصل الولد إلى بيتنا فتتبعوا طريقنا حتى لايم هاوس) حيث تولوا هم الأمر برمته.

- لكن لماذا لم تفقد أنت وعيك؟

- صاحبنا رقم «٤» الذي أَلَّف تلك الرسالة المحبوبة ذكر ملاحظة ساخرة عن شاربي، فأخفيته ومعه كمامة تحت وشاحي الأصفر.

صحت بلهفة: إنني أتذكر.

ومع كلمة «أ تذكر» عادت مشاعر الرعب والخوف على سندريلا، فتراجعت ببعض الأنين. ولا بد أنني فقدت الوعي مرة أخرى بعض الوقت، ثم صحوت فإذا بوارو يقدم لي كأس الليمون وهو يسأل بقلق: ما الأمر يا صديقي؟ قل لي.

أخبرته بالأمر كلمة كلمة وأنا أرتعش، فصاح بوارو: يا صديقي! لقد عانيت كثيراً، لكنني لم أكن أعرف شيئاً من هذا، فاطمئن، كل شيء على ما يرام.

- هل ستجدها؟ لكنها في أمريكا الجنوبية، وحين نصل إليها ستكون قد ماتت منذ زمن طويل، والله وحده يعلم كيف ستموت.

- لا، لا، أنت لم تفهم، إنها آمنة وفي صحة حسنة، بل هي لم تقع في أيديهم أصلاً.

- لكن البرقية من برونسين؟

- لا، أنت لم تستلم منه برقية. ربما استلمت برقية من أمريكا الجنوبية باسم برونسين، وهذا مختلف. قل لي: ألم يظهر لك أن منظمة مثل هذه ذات فروع في كل أنحاء العالم يمكن أن تضغط علينا بواسطة فتاة صغيرة مثل سندريلا التي تحبها كثيراً؟

- لم أفكر بهذا الأمر أبداً.

- حسناً، أما أنا فقد فكرت به، ولم أقل لك شيئاً حتى لا أزعجك من غير ضرورة، لكنني اتخذت إجراءاتي الخاصة.

إن رسائل زوجتك التي وصلتك خلال الأشهر الماضية تبدو وكأنها كُتبت كلها من المزرعة، لكنها كانت في مكان آمن دبرته أنا منذ ثلاثة شهور.

نظرت إليه طويلاً، وأخيراً سألت بسداجة: حقاً؟

- نعم، لقد عذبوك بكذبة!

أدرت رأسي جانباً، فوضع بوارو يده على كتفي. كانت في صوته رنة لم أسمعها أبداً من قبل وهو يقول: أنت لا تحب التعبير عن العواطف، لذلك سأتصرّف بطريقة إنكليزية نموذجية؛ لن أقول شيئاً سوى هذه الكلمات: ما أسعد رجلاً عنده صديق مثل صديقي!

* * *

الفصل الرابع عشر

البروكسيد

خاب أملي كثيراً من نتيجة هجوم بوارو على البيت في الحي الصيني، فقد هرب رأس العصابة.

عندما هرع رجال جاب بعدما صفر بوارو وجدوا أربعة رجال صينيين في القاعة فقدوا وعيهم، لكن الذي هددني بالموت لم يكن فيهم، فتذكرت حينئذ أنني حين أُجبرت على الخروج إلى عتبة الباب بقي ذلك الرجل في المؤخرة، وبذلك بقي خارج منطقة الخطر الذي أحدثته القنبلة ففرّ عبر مخرج من المخارج الكثيرة التي عرفناها فيما بعد.

ولم نعرف أي شيء من الأربعة الذين وقعوا في أيدينا، والتحقيق الواسع الذي أجراه الشرطة لم يكشف أي صلة لأي منهم بالأربعة الكبار. لقد كانوا من فقراء الحي، وقد ادّعوا جهلاً تاماً باسم لي شانغ ين، إنما استأجرهم رجل صيني للخدمة في البيت ولم يكونوا يعلمون شيئاً من شؤونه الخاصة.

في اليوم التالي تعافيت تماماً من أثر القنبلة إلا من صداع خفيف، فذهبنا إلى الحي الصيني وفحصنا البيت الذي كنت أسيراً فيه. كان المبنى يتألف من بيتين مصدّعين متصلين معاً بممر تحت الأرض، وكانا مهجورين لا فرش فيهما، وقد غُطيت النوافذ المكسورة فيهما بستائر بالية.

اطّلع جاب على الأقبية وكشف المدخل المؤدي إلى القبو الذي لبثتُ فيه نصف ساعة عسيرة، وأكد التحقيق أنها غرفة جُهزت من أجلي في الليلة السابقة، وكان الحرير الذي كسا الجدران والأريكة والسجاد الممدود على الأرض، كل ذلك كان متقناً جداً. قد لا أكون من الخبراء العارفين في الفن الصيني إلا قليلاً، ولكنني أملك أن أجزم أن كل قطعة في تلك الغرفة كانت بالغة القيمة عظيمة الشأن.

أجرينا تفتيشاً دقيقاً للبيت. وكنت أرجو أن نعثر على وثائق مهمة، ربما قائمة بأسماء عملاء الأربعة الكبار أو رسائل تشرح خططهم، لكننا لم نجد شيئاً إلا رسائل كان الرجل الصيني يرجع إليها عندما كان يملي عليّ رسالتي إلى بوارو، وكانت تتألف من سجل كبير عن كل عمل عملناه وعن شخصيتنا ومكان ضعفنا!

كان بوارو مبتهجاً بهذا جداً كأنه طفل صغير، أما أنا فلم أحسب أنها ذات قيمة، لا سيما وأن الرجل الذي جمعها -كائناً من كان- قد أخطأ في بعض آرائه بصورة مضحكة. وقد أوضحت ذلك لصديقي ونحن في طريق العودة إلى بيتنا، قلت:

بوارو ، أنت تعرف الآن ماذا يظننا خصمنا؟ يبدو أنه بالغ كثيراً
في تقدير قوتك العقلية واستخف بي! لا أدري كيف يمكن أن
تنفعنا هذه المعرفة؟

ضحك بوارو بطريقة مزعجة وقال: أنت لم تفهم يا
هيستنغز. إننا نستطيع الآن أن نعدّ أنفسنا لمواجهة أساليبهم
في الهجوم حيث أدركنا بعض أخطائنا. مثلاً يا صديقي ، تعلم
أنك يجب أن تفكر قبل أن تعمل ، فإذا رأيت مرة أخرى فتاة
ذات شعر أحمر في مشكلة فيجب أن تنظر إليها بارتياح ، أليس
كذلك؟

كان في رسائلهم إشارات سخيفة عن تهوري المحتمل ،
وأشاروا إلى أنني كنت سريع التأثر بالفتيات ذوات الشعر
الأحمر! وكان فيها إشارة تعني بوارو فاستطعت الرد عليه ،
قلت: وماذا عنك؟ هل ستعالج «غرورك المفرط» و«أناقتك
الشديدة»؟

لم يكن بوارو مسروراً من ردي السريع.

- بلا ريب يا هيستنغز إنهم يخدعون أنفسهم في بعض
الأمر ، وسيعلمون ذلك في الوقت المناسب. وفي غضون ذلك
عرفنا بعض الأشياء وعرفنا أنه يلزمنا الاستعداد.

* * *

كانت الكلمة الأخيرة تلك هي البديهية المفضلة لديه
منذ عهد قريب ، وقد بدأت أكره معناها. كرر قائلاً: هيستنغز ،

إننا نعرف شيئاً ما، وهذا فيه خير، لكن ينبغي أن نعرف أكثر.

- في أي اتجاه؟

استرخى بوارو في مقعده وعدّل علبة الكبريت التي ألقيتها على الطاولة بإهمال، وشعرت أنه يستعد لإلقاء خطبة طويلة.

قال: يجب أن نواجه أربعة أعداء يا هيستنغز، أربعة أشخاص مختلفين. رقم «١» عرفناه ولم نتعامل معه. وبالمناسبة، لقد بدأت أفهمه فهماً حسناً يا هيستنغز: عقل شرقي حاذق. إن كل ما لقيناه كان من تدبير عقل لي شانغ ين.

رقم «٢» ورقم «٣» لهما نفوذ ودرجة اجتماعية عالية، لذلك فإنهما في حصانة من هجومنا، غير أن هذا سلاح ذو حدين: إنهما مكشوفان فينبغي أن يقدرا حركاتهما بعناية، وهما -مع ذلك- قادران على النجاح لما لهما من شهرة ومنصب. أما رقم «٤»...

تغيّر صوت بوارو قليلاً، وتابع: أما رقم «٤» فإن نجاحه في تخفيّه. من هو؟ لا أحد يعرف. ما هو شكله؟ لا أحد يعرف. كم مرة رأيناه؟ خمساً، أليس كذلك؟ فهل يستطيع أحدنا أن يجزم بأنه سيعرفه إذا رآه من جديد؟

تذكرتُ الرجال الخمسة المختلفين: حارس المصحة القوي الجسم، وجيمس الذي كان يرتدي المعطف المزرّر في باريس، والخدام، والطبيب الشاب الباسم في قضية الياسمين

الأصفر، والبروفسور الروسي... لم يشبه أيُّ واحد من هؤلاء
الخمسة الآخر، فقلت: لا، لا دليل عندنا بتاتاً!

ابتسم بوارو وقال: أرجوك لا تدع لهذا اليأس الشديد
سبيلاً إليك. لقد عرفنا بضعة أمور، عرفنا أنه رجل متوسط
الطول أشقر الشعر قليلاً، فلو كان رجلاً طويلاً أسمر لما استطاع
أن يخدعنا في هيئة الطبيب الأشقر المعتدل الطول. ولا بد أن
يكون أنفه صغيراً مستقيماً لأن الأنف الكبير لا يصير صغيراً، ثم
لا بد أن يكون شاباً ليس أكبر من الخامسة والثلاثين، متوسط
الطول، لونه طبيعي، ليست لديه أسنان طبيعياً...

- ماذا؟! -

- نعم يا هيستنغز، فالحارس كانت أسنانه مكسورة
صفراء، وفي باريس كانت أسنانه بيضاء مستوية، وحين كان
طبيباً كانت أسنانه بارزة قليلاً، وعندما كان سافرونوف كانت
أنيابه طويلة... لا شيء يغير الوجه مثل طقم مختلف من الأسنان.
هل ترى أين يقودنا كل هذا؟

- لا أدري.

- يقولون: "حرفة الرجل مكتوبة في وجهه".

- مجرم؟

- بل أقصد أنه خبير في فن المكياج أو أنه ممثل أو كان
ممثلاً في يوم ما.

- ممثل؟

- نعم، فنان بارع. الممثلون صنفان: صنف يطيعه دَوْرُه وصنف يطيع دورَه، صنف يؤثر في الدور وصنف يتأثر به ويقلب شخصيته حسب دوره. يجب أن نبحت عن رقم «٤» في هذا الصنف الأخير. إنه فنان بارع يتلبس الشخص الذي يمثل دوره بإتقان.

كنت أزداد استشارة، وقلت: إذن فأنت تظن أنك تستطيع أن تتبع أثره في المسرح؟ وددت لو أن هذه الفكرة جاءتك من قبل، لقد ضيعنا الكثير من الوقت.

- لا يا صديقي، لم نضيع وقتنا. إن عملائي مشغولون بالبحث منذ بضعة شهور، وقد جمعوا قائمة بالرجال الذين تنطبق عليهم الأوصاف المطلوبة: شباب في نحو الثلاثين ذوو موهبة في التمثيل، تركوا المسرح في السنين الثلاث الأخيرة بصورة قاطعة.

قلت بشوق: حسناً؟

- كانت القائمة طويلة، ومنذ زمن ونحن مشغولون بالحذف، وأخيراً أخرجنا منها أربعة أسماء. ها هي يا صديقي.

أعطاني ورقة قرأت ما فيها بصوت مسموع:

إيرنست لوترييل: ابن كاهن في الشمال، غريب الأطوار، طُرد من مدرسته فذهب ليعمل في المسرح وهو في الثالثة

والعشرين ، مدمن مخدرات ، يُفترض أنه سافر إلى أستراليا قبل أربع سنوات ولم نستطع متابعته منذ غادر إنكلترا. عمره الآن اثنان وثلاثون عاماً، طوله ١٧٨ سم ، حليق ، شعره بني ، أنفه مستقيم ، البشرة فاتحة ، العينان رماديتان.

جون سينت مور: اسم منحول ، الاسم الصريح مجهول ، كأنه من أصل لندي ، عمل في المسرح منذ أن كان طفلاً حيث كان يؤدي أدواره في مسرح المنوعات ، انقطعت أخباره منذ ثلاث سنوات ، في الثالثة والثلاثين ، طوله ١٧٨ سم ، نحيف ، عيناه زرقاوان ، لونه أشقر.

أوستين لي: اسم منحول ، اسمه الصريح أوستين فوللي ، من أسرة طيبة ، كان يحب شكلاً واحداً من التمثيل وكوّن لنفسه شخصية متميزة ، له سجل حربي متألق ، مثل في مسرحيات عدة وكان يتحمس لتمثيل قصص الجريمة ، أصابه انهيار عصبي شديد بسبب حادث سيارة قبل ثلاث سنوات فلم يظهر على المسرح بعدها. لا أثر يدل على مكانه الآن ، عمره ٣٥ سنة ، طوله ١٧٧ سم ، بشرته شقراء وشعره بني وعيناه زرقاوان.

كلود داريل: يُفترض أنه اسم صريح ، أصله مجهول ، مثل في مسرح المنوعات ، ليس له أصحاب مقربون ، كان في الصين عام ١٩١٩ ثم عاد عن طريق أمريكا ، مثل أدواراً قليلة في نيويورك ، وفي إحدى الليالي لم يظهر على خشبة المسرح ولم يُسمع عنه شيء بعدها ، تقول شرطة نيويورك إن اختفائه غامض جداً ، عمره ٣٣ سنة ، شعره بني ، بشرته شقراء ، عيناه

رماديتان، طوله ١٧٨ سم.

قلت وأنا أضع الورقة: هذا مدهش جداً! إذن فهذه نتيجة التحقيق الذي دام شهوراً؟ وهذا الأسماء الأربعة، أي واحد منها تشك فيه؟

أشار بوارو بيده بإيماءة نصيحة: يا صديقي، إن هذا السؤال مبكر في الوقت الراهن. لا بد أنك لاحظت أن كلود داريل كان في أمريكا والصين، وهي حقيقة ذات دلالة. ربما، ولكن لا يجدر أن نسمح لأنفسنا بالتحيز لهذه النقطة تحيزاً مفرطاً، ربما كان الأمر مجرد مصادفة.

سألت متلفهاً: وما هي الخطوة التالية؟

- الأمور تسير بنظام. ستظهر كل يوم إعلانات مكتوبة بحذر، أصدقاء أو أقرباء أحد هؤلاء الأربعة سيتصل بمحامي في مكتبه، حتى في اليوم يمكن أن يكون... آه، إنه الهاتف يرن. ربما يكون الرقم خطأ كالعادة وسوف يعتذرون عن الإزعاج، وربما يكون شيء ما قد ظهر.

عبرت الغرفة ورفعت السماعة: نعم، نعم، هنا بيت السيد بوارو، أنا الكابتن هيستنغز. آه، السيد ماكنيل؟ نعم، سأخبره ونأتي حالاً.

وضعت السماعة ورجعت إلى بوارو قائلاً: بوارو، محاميك السيد ماكنيل اتصل يقول إن امرأة صديقة لكلود داريل

اسمها الأنسة فلوسي مونرو موجودة في مكتبه، وهو يريد أن تذهب إليه.

صاح بوارو: فوراً.

واختفى في غرفة نومه ليعود وعلى رأسه القبعة، وعلى الفور ركبنا سيارة حملتنا إلى وجهتنا، ودخلنا مكتب السيد ماكنيل الخاص.

* * *

جلست على المقعد المواجه للمحامي امرأة دميمة تجاوزت سن الشباب، شعرها أصفر مقرّز فيه خصلات مجعدة فوق كل أذن وجفناها مصبوغان بالسواد، ولكنها لم تنس -على أي حال- وضع الحمرة وأحمر الشفاه!

قال ماكنيل: ها هو السيد بوارو. سيد بوارو، ها هي الأنسة مونرو التي تلطفت كثيراً بنا واستجابت لنا.

- آه، هذا لطف كبير.

ثم تقدم بوارو وقال بحماسة غير آبهٍ بمشاعر السيد ماكنيل: إن الأنسة تُزهر كالوردة في هذا المكتب الممل العتيق.

احمرّ وجه الأنسة مونرو خجلاً وابتسمت ابتساماً متكلّفة وهي تعلّق قائلة: لا تمزح يا سيد بوارو، إنني أعرفكم أيها الفرنسيون.

- يا آنسة، نحن لسنا بلهاء أمام الجمال كالإنكليز. وأنا لست فرنسياً، أنا بلجيكي.

- لقد ذهبتُ إلى أوستند بنفسِي.

فكرت: إن الأمور تسير بصورة رائعة كما كان بوارو يقول.

قال بوارو: إذن فأخبرينا عن السيد كلود داريل.

- عرفت السيد كلود داريل يوماً ما، وقد رأيت إعلانك، وحيث إنني لا أعمل الآن في المحل فقد قلت لنفسِي: إنهم يريدون أن يعرفوا عن المسكين العجوز كلودي، فلعلّ وراءه ثروة لم يعرفوا وارثها، لذا يجب أن أذهب في الحال.

نهض السيد ماكنيل قائلاً: حسناً يا بوارو، هل أترككم وحدكم؟

- أنت لطيف جداً، لكن ساعة الغداء تقترب وقد خطرت ببالي فكرة صغيرة. ربما تريد الآنسة أن تذهب معي لتتناول الغداء.

تلاّأت عيناها، وخطر ببالي أنها كانت في ضائقة مالية وأن وجبة مُشبعة لا تُرفض! وخرجنا جميعاً في سيارة أجرة نحو أحد مطاعم لندن الفاخرة، وعندما وصلنا طلب بوارو غداءً لذيذاً.

بدأت تأكل وجبتها بشهية فيما طرق بوارو موضوعه المهم بحذر: مسكين السيد داريل، إنني آسف لأنه ليس معنا الآن.

تنهدت الأنسة مونرو قائلة: صدقت، الحق أنه ولد مسكين! ترى ماذا جرى له؟

- لقد مضى وقت طويل على لقائك به، أليس كذلك؟

- آه، بلى، منذ سنوات. لم أره منذ الحرب. كان كلودي ولداً مرحاً لا يتحدث عن نفسه أبداً، لكن كل شيء سيظهر لو كان هو وريثاً مفقوداً. وهل هو إرث شرعي يا سيد بوارو؟

قال بوارو بلا تردد: للأسف مجرد تركة، والمسألة هي في تحديد الهوية، لذلك يلزمنا البحث عن شخص كان يعرفه جيداً. أنت كنت تعرفينه جيداً، أليس كذلك يا آنسة؟

- لا بأس يا سيد بوارو، فأنت رجل لطيف تحسن اختيار طعام السيدات بأفضل من صغار هذه الأيام السفهاء، وأظن كونك فرنسياً غير مخيف.

عارضها بوارو متلطفًا: لا، لا يا آنسة، لا تقولي ذلك. والآن هلاً وصفت لي السيد داريل هذا؟

- ليس بالطويل ولا بالقصير، أنيق، عيناه رماديتان فيهما زرقاة، شعره أشقر، فنان وأي فنان! لم أر مثله في الناس، ولولا الغيرة لأصبح رجلاً مشهوراً. آه يا سيد بوارو، كم نعاني نحن الفنانين من الغيرة والحسد، أذكر مرة في مانشستر...

- هذا كلام جميل يا آنسة، إن النساء لا ينسين شيئاً ويلاحظن ما يفوت الرجال. لقد عرفت امرأة عرفت رجلاً من

بين اثني عشر رجلاً، فهل تعرفين كيف؟ لقد لاحظتُ سمة مميزة تظهر على أنفه إذا غضب. هل في الرجال من يلاحظ شيئاً كهذا؟

صرخت مونرو: ألا تستطيع ذلك؟ نعم، نحن نلاحظه. أتذكر كلودي، الآن بدأت أفكر بذلك: كان كثير العبث بالخبز الموضوع على الطاولة، كان يضع قطعة صغيرة بين أصابعه ويفرّكها ليأكل لبّ الرغيف. لقد رأيته يفعل ذلك مئة مرة وأستطيع أن أعرفه من هذه العادة فيه.

- وهل تحدثت معه عن عادته هذه يا آنسة؟

- لا، فأنت تعرف طبع الرجال: لا يحبون أن تنتقدهم، ولا سيما إن بدا لهم أنك تنهاهم عن فعلها. لم أقل كلمة واحدة مطلقاً، لكنني كنت أضحك في سرّي كثيراً. إنه لم يكن يشعر بما يفعله!

هزّ بوارو رأسه موافقاً، ورأيت يده ترتعش قليلاً حين مدها إلى صحنّه، قال: وخط اليد وسيلة لتحديد الهوية، لا شك أن عندك رسالة كتبها السيد داريل.

هزّت رأسها أسفاً: لم يكتب لي سطرأ في حياته قط.

- هذا مؤسف.

قالت مونرو فجأة: لكنّ عندي صورة.

قفز بوارو من كرسيه مذهولاً، فقالت: إنها صورة قديمة،

حين كان عمره ثمانية أعوام.

- لا مشكلة ولو كانت عتيقة أو باهتة، هلاً أعطيتني إياها
يا آنسة؟

- نعم، بالتأكيد.

- ربما تأذين أن أستنسخ منها؟ إن هذا لا يستغرق وقتاً
طويلاً.

- أجل، إذا كنت تحب ذلك.

نهضت مونرو وقالت بمكر: يجب أن أنصرف. لقد
أسعدني لقاءك أنت وصاحبك يا سيد بوارو.

- والصورة؟

- سأبحث عنها هذه الليلة. أظن أنني أعرف مكانها،
وسوف أرسلها لك فوراً.

- ألف شكر يا آنسة، أنت لطيفة جداً، وأرجو أن نتناول
الغداء معاً في وقت قريب.

- أنا على استعداد متى شئت.

- لكنني أجهل عنوانك.

بكبرياء شامخة سحبت مونرو بطاقة من حقيبتها فأعطتها
له. كانت بطاقة متسخة بعض الشيء، وكان العنوان المطبوع
مشطوباً وقد كُتب فوقه عنوان آخر بقلم رصاص.

ثم مع كثير من الانحناء ودّعنا المرأة وانصرفنا، وسألت بوارو: هل تظن حقاً أن هذه الصورة مهمة؟

- نعم يا صديقي، فالكاميرا لا تكذب. نستطيع أن نكبّر الصورة ونضبط النقاط البارزة ونعرف كثيراً من التفاصيل: الأذن التي لا يستطيع أن يصفها لك أحد مثلاً. حقاً ما أعظم هذه الفرصة التي جاءت لنا، من أجل هذا اتخذت احتياطي.

عبر نحو الهاتف وطلب رقم وكالة التحري الخاصة، وكانت أوامره واضحة وحاسمة: يذهب اثنان من الرجال إلى عنوان ذكره ويراقبان مونرو، يتبعانها حيث تروح وتجيء ويوفّران لها الحماية اللازمة.

أعاد بوارو السّماع، وبعدها سألته: وهل هذا ضروري يا بوارو؟

- ربما، فأنا وأنت مراقبان بالتأكيد، وسوف يعرفون من كان يأكل معنا الغداء اليوم. ربما أحس رقم «٤» بالخطر.

* * *

مضت عشرون دقيقة، ثم رنّ الهاتف، وعندما أجبت عليه سمعت على الطرف الآخر صوتاً بارداً: أهذا هو السيد بوارو؟ هنا مستشفى سينت جيمس. قبل عشر دقائق أحضرت لنا امرأة شابة، الأنسة فلوسي مونرو. حادث سيارة. إنها تسأل عن السيد بوارو بإلحاح شديد، يجب أن يأتي حالاً فربما لا تعيش طويلاً.

أخبرت بوارو، فاصفرَّ وجهه وهتف: هيا يا هيستنغز،
هيا نطلق كالبرق!

وصلنا إلى المستشفى في غضون عشر دقائق حيث سألنا
عن مونرو، وصعدنا إلى جناح الحوادث، لكن ممرضة قابلتنا
عند الباب، وقرأ بوارو الخبر في وجهها.

- ماتت؟

- قبل ست دقائق.

وقف بوارو مصعوقاً، وبدأت الممرضة تكلمه بلطف
وهي لا تدري حقيقة حزنه: لقد بقيت غائبة عن الوعي ولم
تُعانِ من ألم شديد. دهمتها سيارة ولم يتوقف السائق... آمل
أن أحداً سجّل رقم سيارته.

قال بوارو همساً: الأحداث تتسارع ضدنا.

- أتود أن تراها؟

تقدمتنا الممرضة وتبعناها. كانت المسكينة فلوسي مونرو
مُمدّدة بشعرها المصبوغ والحمرة على شفيتها. رقدت بسلام
وعلى وجهها بسمّة.

همس بوارو: أجل، الأحداث تجري ضدنا!

وفجأة رفع رأسه وكأن فكرة ما قد خطرت له وقال: لقد
اقتربت نهاية هؤلاء الأشرار. أقسم لك وأنا أف هنا بجانب جثة

هذه المسكينة أنني لن أرحمهم عندما يحين الوقت.

- ماذا تقصد؟

لم يجب بوارو بشيء، بل التفت إلى الممرضة وهو يطلب بلهفة بعض المعلومات، وأخذ أخيراً قائمة بالأغراض التي وُجدت في حقيبتها. وصاح بوارو صيحة مكبوتة وهو يقرأها: هل ترى يا هيسنتنغز؟ هل ترى؟ لا ذكر لمفتاح الباب. لا شك أنها كانت تحمل مفتاحاً. نعم، لقد صُرعت بدم بارد وأول رجل انحنى فوقها أخذ المفتاح من حقيبتها، لكن الوقت ما زال معنا، فقد لا يجد ما يريده في الحال.

حملتنا سيارة أخرى إلى عنوانها، وكان واحداً من بيوت قذرة متجاوزة في حيّ قديم. ومضى وقت طويل حتى سُمح لنا بدخول بيتها، لكننا كنا قانعين بأن أحداً لا يستطيع أن يغادر البيت ونحن نراقبه من الخارج.

وأخيراً دخلنا، وكان واضحاً أن شخصاً قد دخل قبلنا هنا، لأن محتوى الأدراج والخزائن كله مبعثر منشور والأقفال مكسورة والطاولات مقلوبة... كانت عجلة الباحث قبلنا عنيفة جداً!

بدأ بوارو يبحث في الحطام، وفجأة وقف منتصباً يصرخ ويمسك إطاراً قديماً لصورة فوتوغرافية، أما الصورة نفسها فقد اختفت! قلبه ببطء، وكان على ظهر الإطار لاصق مدور صغير، ملصق يبين السعر.

قلت له : ثمنه أربعة شلنات.

- انظر جيداً يا عزيزي هيستنغز. إنه لاصق جديد،
ألصقه الرجل الذي نزع الصورة والذي سبقنا هنا. لقد عرف
أننا سنحضر فترك لنا هذه. إنه رقم «٤»، كلود داريل بالتأكيد.

* * *

الفصل الخامس عشر

الفاجعة الرهيبة

لاحظت أن بوارو تغير بعد الوفاة المأساوية لمونرو. حتى ذلك الحين كانت ثقته بنفسه التي لا تهتز قادرة على المقاومة، لكن الإجهاد الطويل استهلك أعصابه فبدا مهموماً كثيراً كأنما أعصابه توشك أن تنهار.

في هذه الأيام كان هائجاً كأنه قط، يتجنب كل نقاش في الأربعة الكبار، لكنني كنت أعلم أنه كان نشيطاً في المسألة سراً. كان يزوره رجال غرباء في كثير من الأحيان، لكنه لم يتكلم عليّ بأي شرح لهذا النشاط الخفي، وفهمت أنه كان يبني دفاعاً جديداً ويعد سلاحه بمساعدة هؤلاء الرجال ذوي المظاهر المشيرة للاشمئزاز.

ذات مرة رأيت ما هو مدوّن في دفتر حسابه المصرفي مصادفةً، وكان قد طلب مني أن أتحقق من أمر ما، فعرفت أنه دفع مبلغاً كبيراً من المال، كبيراً جداً حتى على بوارو الذي يكسب المال عادة بسرعة، دفعه لرجل روسي له اسم طويل!

بقي يكتنم الأمر عني ، وكان يكرر دوماً قوله : "تذكر دائماً : إياك أن لا تقدّر عدوك يا صديقي ". ففهمت أن ذلك كان الشرك الذي يجتهد أن يتجنبه بأي ثمن .

وهكذا سارت الأمور حتى نهاية آذار (مارس). وفي أحد الأيام قال بوارو كلاماً خوِّفني ، قال : عليك أن ترتدي أفضل ثيابك هذا الصباح يا صديقي ، فسوف نزور وزير الداخلية.

- حقاً؟ هذا مذهش! وهل هو الذي استدعاك؟

- لا ، بل أنا طلبت مقابلته. لعلك تذكر أنني قدمت له خدمة ذات يوم ، وهو متحمس بسببها وسوف تنفعني حماسته ، وكما تعرف فإن رئيس وزراء فرنسا السيد دسجارديو يزور لندن الآن ، وسوف يحضر اجتماعنا الصغير هذا الصباح.

كان وزير الداخلية اللورد سيدن كراوثر رجلاً مشهوراً في الخمسين من عمره ، ذا أسلوب مرح وعيون رمادية لاذعة. استقبلنا بتلك الطريقة المرححة الأنيسة ، وكان في البيت رجل طويل نحيل يقف وظهره إلى الموقد ، ذو لحية سوداء ووجه رقيق.

قال كراوثر: سيد دسجارديو ، هذا هو السيد هيركيول بوارو ، لعلك سمعت به؟

انحنى الرجل الفرنسي ومد يده يصافحه ، وقال بفكاهة : أجل ، لقد سمعنا بالسيد هيركيول بوارو ، ومن ذا لا يعرفه؟

احمرّ وجه بوارو ابتهاجاً وقال: هذا لطف منك يا سيدي.

ثم تقدم رجل من زاوية بجانب خزانة كتب طويلة. كان ذلك هو السيد إنغليز صديقنا القديم، وصافحه بوارو بشدة. قال كراوثر: والآن سيد بوارو، ها نحن في خدمتك. لقد فهمت أن لديك معلومات في غاية الأهمية تريد إطلاعنا عليها.

- نعم يا سيدي، وسوف أقدمها لكم بإيجاز. في هذا العالم منظمة راسخة في الجريمة تسمى نفسها «الأربعة الكبار» ورؤوسها أربعة أفراد. رقم «١» رجل صيني اسمه لي شانغ ين، ورقم «٢» هو المليونير الأمريكي آبي ريلاند، ورقم «٣» امرأة فرنسية، أما رقم «٤» فلديّ من الأسباب ما يدعوني إلى الاعتقاد بأنه الممثل الإنكليزي الغامض كلود داريل. هؤلاء الأربعة اتحدوا لكي ينشروا الفوضى ويقوّضوا النظام الاجتماعي القائم في العالم ويستبدلوا به نظاماً استبدادياً تكون لهم من خلاله السيطرة.

همس الفرنسي: مستحيل أن يتورط ريلاند في أمر كهذا. إن الفكرة خيالية بالتأكيد.

قال بوارو: اسمح لي بأن أسرد عليك بعض أفعالهم يا سيدي.

كان الوصف الذي قدّمه بوارو للأمر ساحراً، وقد كنت أعرف كلامه تفصيلاً لكنه أثارني من جديد وأنا أسمع وصف مغامراتنا الخطيرة.

بعد أن أنهى بوارو حديثه نظر السيد دسجارديو إلى صاحبه كراوثر، وأجاب كراوثر على النظرة بقوله: نعم يا سيد دسجارديو، يجب علينا أن نُقرّ بوجود الأربعة الكبار. لقد سَخِرَت سكتلنديارد من ذلك في البداية وزعم الشرطة أن السيد بوارو يببالغ كثيراً، غير أنني -شخصياً- أشعر بأن كلامه صحيح، وقد أُجبرت سكتلنديارد على التسليم بأكثر هذه الفرضيات.

شرح بوارو لهما عشرة أمور رئيسية طلب مني أن لا أعلنها، وتضمنت الكوارث التي أصابت الغواصات وسلسلة حوادث الطائرات وهبوطها الإجباري، وحسب كلام بوارو كانت كلها من فعل الأربعة الكبار، وشهد بأن عندهم أسراراً علمية لم يعرفها العالم بعد، وهذا ما جعل رئيس وزراء فرنسا يسأل بوارو سؤالاً كنت أنتظره، قال: قلت إن العضو الثالث من هذه المنظمة امرأة فرنسية، هل تعرف ما اسمها؟

- إنه اسم مشهور جداً يا سيدي، اسم ذائع الصيت. إنها ليست سوى السيدة أوليفيه ذائعة الصيت.

حين ذُكر اسم العالممة الكبيرة خليفة مدام كوري قفز السيد دسجارديو من كرسيه وقد احمرّ وجهه انفعالاً وقال: السيدة أوليفيه؟ هذا سخيف! إن الذي تقوله إهانة.

هزّ بوارو رأسه بلطف دون أن يجيب، ونظر دسجارديو إليه مذهولاً لبضع دقائق، ثم التفت إلى وزير الداخلية وأشار إلى جبينه بصورة ذات دلالة. قال: السيد بوارو رجل عظيم،

لكن حتى العظماء يصيبهم الهوس أحياناً، هذا معروف، أليس كذلك يا سيد كراوثر؟

صمت وزير الداخلية قليلاً ثم أجابه بلسان ثقيل: لا أدري، كنت دائماً وما زلت أثق بالسيد بوارو، لكن هذا التعليق جدير بالملاحظة.

أضف دسجارديو: ولي شانغ ين أيضاً، من ذا سمع به من قبل؟

جاء الجواب من السيد إنغليز على غير توقع: أنا سمعت. حدق إليه الرجل الفرنسي ثم نظر بهدوء كأنه وثن صيني، وأوضح وزير الداخلية: السيد إنغليز هو أعظم مرجع لدينا في شؤون الصين.

قال إنغليز: لقد ظننت أنني الرجل الوحيد في إنكلترا الذي يعرف عنه، إلى أن جاءني السيد بوارو. لا ترتكب خطأ يا سيد دسجارديو. في الصين رجل واحد ذو أثر اليوم، لي شانغ ين، وقد يكون أذكى دماغ في العالم اليوم على الإطلاق.

جلس السيد دسجارديو كالمصعوق، لكنه ملك قواه وقال: ربما يصح شيء مما تقول يا سيد بوارو، ولكنك مخطئ بالتأكيد فيما يتعلق بالسيدة أوليفيه، إنها ابنة فرنسا المخلصة للعلم.

هزّ بوارو كتفيه استهجاناً ولم يجب. وران الصمت لبعض

الوقت، ثم نهض صديقي وعليه ملامح الوقار قائلاً: هذا كل ما أردت قوله يا سادة. إنني أحذرکم، لقد فكرت أنکم ربما لا تصدقونني، لكنکم قد تصبحون أكثر حذراً. إن كلماتي ستدخل في الأعماق، وكل جديد يحدث سيؤكد لكم الحقيقة. كان ضرورياً أن أتحدث الآن إليکم، فلعلي لا أستطيع أن ألتقي معکم بعد هذا اليوم!

سأله كراوثر وهو متأثر من وقاره الظاهر: تقصد...

- أقصد أنني أصبحت في خطر دائم منذ فضحتُ اسم رقم «٤»، سوف يسعى للقضاء عليّ بأي ثمن، فليس اسمه «المدمر» من فراغ أو ضعف يا سادة. أسلم عليكم، وإليك يا سيد كراوثر هذا المفتاح وهذا الظرف. كتبت كل ملاحظاتي عن القضية وأفكاري حول أحسن السبل لمواجهة الخطر الذي قد يعمّ العالم يوماً ما ووضعتها في خزانة، فإذا قُتلتُ فأنت صاحب الحق بالتصرف بتلك الأوراق يا سيد كراوثر. يوماً طيباً.

* * *

خرجنا وخرج إنغليز معنا، وقال بوارو ونحن نسير: لم يخب ظني في المقابلة، فلم أتوقع إقناع دسجارديو، لكنني ضمنت أنني إذا مت فإن معرفتي لن تموت. لقد أفنعت شخصاً واحداً على الأقل، وهذا ليس سيئاً أبداً.

قال إنغليز: أنا معك كما تعرف، وسوف أسافر إلى الصين إن نجوت بنفسني.

- هل هذا عمل حكيم؟

- لا، لكنه واجب، وعليّ أن أعمل ما أستطيع.

- آه، إنك رجل شجاع، ولو لم نكن في الشارع لعانقتك.

لاحظت أن إنغليز بدا مطمئناً وقال: قد لا أكون في خطر وأنا في الصين أكثر من الخطر الذي تواجهه أنت في لندن.

- ربما، وأرجو أن لا يذبخوا هيستنغز أيضاً. إن هذه

الفكرة تزعجني تماماً!

قاطعت حديثهما اللطيف لأقول إنني لا أعتزم تسليم نفسي للذبح. وبعد ذلك بقليل تركنا إنغليز، فمشينا بصمت بعض الوقت حتى قطعه بوارو وقال عبارة مفاجئة تماماً، قال: أظن أن عليّ أن أستعين بأخي في هذه القضية.

قلت دهشاً: أخوك؟! لم أعرف أن لك أخاً من قبل.

- يا هيستنغز، ألا تعلم أن رجال التحري لهم إخوة كسائر

الناس؟

لبوارو طريقة عجيبة أحياناً تجعل المرء في حيرة، لا يدري أجادّ هو أم هازل! سألته وأنا أحاول أن أوافقه: وما اسم أخيك؟

- أشيل، وهو يعيش قرب منتجع صحي في بلجيكا.

- وماذا يعمل؟

- لا شيء ، لأنه مريض . لكن قدرته ليست دون قدرتي .

- وهل يشبهك ؟

- أجل ، لكنه ليس أنيقاً ويحلق شاربه .

- أهو أكبر منك ؟

- لقد تصادف أنه وُلد في نفس اليوم الذي ولدت أنا فيه .

صحت مندهشاً : توأمان ؟ !

- تماماً يا هيستنغز ، إنك تقفز إلى النتيجة الصحيحة بدقة .

ها نحن قد عدنا إلى البيت ثانية ، دعنا نشتغل في الحال بتلك القضية السهلة ، قضية عقد الدوقة .

* * *

لكن قُدِّر لقضية عقد الدوقة أن تتأجل بعض الوقت ، فقد كانت عندنا قضية من نوع آخر ، فما إن دخلنا إلى البيت حتى جاءت السيدة بيرسون وأخبرتنا أن ممرضة اتصلت وأنها تريد رؤية بوارو .

دخلنا فوجدناها تجلس على مقعد كبير مقابل النافذة . امرأة جميلة في ربيع العمر في زيّ كحليّ ، وترددت في الحديث قليلاً ، لكن بوارو طمأنها فأخذت تحكي قصتها : أرسلني مستشفى لارك سيتهود لكي أمْرَض عجوزاً في هيرتفوردشاير اسمه السيد تمبلتون ، وكان بيته يثير البهجة وأهله فرحين .

الزوجة، السيدة تمبلتون، أصغر كثيراً من زوجها، وله ابن من زواجه الأول يعيش هناك، ولكنه لم يكن على وفاق دائم مع زوجة أبيه، وهو لم يكن مختلفاً تماماً ولكنه من النوع البطيء التفكير. حسناً، لقد كان العجوز مريضاً، وبدأ لي مرضه منذ البداية غامضاً، وفي ذلك الوقت بدا سليماً معافى، ثم أصابته فجأة نوبة معوية مع ألم وتقيؤ، لكن طبيبه بدا راضياً عن حالته فلم أستطع أن أقول شيئاً، إلا أنني لم أملك نفسي من التفكير في حالته، ثم...

سكتت واحمرّ وجهها، وقال بوارو: حدث شيء أثار شكوكك؟

- نعم.

سكتت وقد بدا أن الاستمرار صار صعباً عليها، ثم قالت: عرفت أن الخدم ينقلون كلاماً أيضاً.

- عن مرض السيد تمبلتون؟

- آه! لا، بل عن هذا الشيء الآخر.

- السيدة تمبلتون؟

- نعم.

- ربما عن السيدة تمبلتون مع الطبيب؟

كان بوارو ذا حاسة خارقة في هذه الأمور. ألقت الممرضة

عليه نظرة شكر وأكملت: كانوا ينقلون كلاماً، ثم ذات يوم رأيتهما بعيني في الحديقة.

توقفت المسألة هكذا. لقد كانت زبونتنا في كرب شديد لأنها انتهكت الحشمة، فلم نسألها ماذا رأيت حياءً، لكنها حتماً رأيت ما فيه برهان.

- ثم ساءت حالة المريض أكثر، وزعم الدكتور تريفيز أن كل ما يصيب العجوز طبيعي متوقع وأنه ربما لا يعيش طويلاً، لكنني لم أرَ شيئاً من هذا من قبل طوال خبرتي في التمريض، بل بدا لي أنه يشبه شكلاً من...

أطرقت مرة أخرى وهي مترددة، فتدخّل بوارو مساعداً:
التسمم الزرنيخي؟

هزّت رأسها موافقة، ومضت قائلة: ثم قال المريض بعد ذلك شيئاً عجيباً، قال: سيقتلونني أربعتهم، سيقتلونني!

- ماذا؟

- كانت تلك هي كلمته يا سيد بوارو. كان يكابد ألماً عظيماً آنذاك ولا يعي -على الأغلب- ما يقول.

- ماذا تظنين معنى قوله «أربعتهم»؟

- لا أدري. لعله كان يقصد زوجته وابنه والطبيب والآنسة كلارك صاحبة زوجته، ربما كان يتوهم أنهم جميعاً متحدون ضده.

- نعم، ربما. وماذا عن الطعام؟ ألم تأخذي حذرَكَ بشأنه؟

- أنا أصنع دائماً ما أستطيع، لكن السيدة تمبلتون تلح أحياناً كي تطبخه هي بيدها، ثم أحياناً أكون في عطلة.

- تماماً، وأنت لست على يقين من الأمر لكي تبلغني

الشرطة؟

أظهر وجه الممرضة خوفها عند هذا السؤال، ثم مضت قائلة: أصابت السيد تمبلتون نوبةً بعد شربه صحناً من المرق، فأخذت حُثالة المرق وأحضرتها معي. لقد ألغيت زيارة أمي المريضة هذا اليوم من أجله.

أخرجت قارورة مُلئت سائلاً قاتماً وقدمتها لبوارو الذي قال: أحسنتِ يا آنسة، سوف نحللها الآن، وإذا عُدت بعد ساعة سنكون قد حسمنا شكوكك.

كتب بوارو اسمها وبعض المعلومات عن مؤهلاتها، ثم سطر رسالة وبعثها مع قارورة المرق. وبينما كنا ننتظر النتيجة كان بوارو يسلي نفسه بالنظر في أوراق الممرضة، مما أدهشني، فقال: أنا أعمل جيداً يا صديقي كي أكون حذراً، لا تنسَ أن الأربعة الكبار يتعقبوننا.

عرف بوارو أن اسمها مابل بالمر وأنها كانت تعمل في معهد لارك. تُرى لماذا أرسلتَ إلى تمبلتون؟ قال وعينه تلمع: حسناً، والآن ها هي بالمر رجعت وها هو بيان التحليل.

- هل فيه زرنِيخ يا سيد بوارو؟

هز بوارو رأسه بالنفي، وقال وهو يطوي الورقة مرة أخرى: لا.

دُهشت أنا والممرضة كثيراً، وأكمل بوارو: ليس فيه زرنِيخ لكن فيه أنْتيمون. سنذهب حالاً إلى هيرتفوردشاير، وأدعو الله أن لا نكون متأخرين.

* * *

لقد قرر بوارو أن يقدم نفسه كرجل تحر، وحجته الظاهرة أنه أتى يسأل السيدة تمبلتون عن خادمة كانت تعمل عندها ويزعم أن لها علاقة بسرقة جواهر. ووصلنا بيتهم المسمى «المستيد» في ساعة متأخرة بعدما سمحنا للممرضة أن تسبقنا بعشرين دقيقة حتى لا تثار شكوكٌ حول وصولنا معاً.

كانت السيدة تمبلتون امرأة طويلة عابسة يبدو في عينيها القلق. استقبلتنا ولاحظتُ مسحةً من الخوف سرت على وجهها عندما أعلن بوارو عن هويته، لكنها أجابت سؤاله في شأن الخادمة بجلد، ثم أراد بوارو أن يختبرها فبدأ حديثه بتاريخ طويل لقضية تسمم وصفتها امرأة مذنبه. ولم تفارق عيناه وجهها وهو يتحدث، وقد حاولت هي كَبَّت هيجانها الذي كان يزيد، ثم أسرع فجأة خارجة من الغرفة بعذر ضعيف.

لم نبقَ وحدنا طويلاً، فقد دخل علينا رجل قوي الجسم

ذو شارب أحمر خفيف وعلى أنفه نظارة، وقدّم نفسه قائلاً:
أنا الدكتور تريفيز. طلبت مني السيدة تمبلتون أن أعتذر لكما
لأنها في حال سيئة. إنها متوترة بسبب قلقها على زوجها، وقد
نصحتها بأن تذهب إلى النوم حالاً، لكنها ترجوكم أن تبقىا.
لقد سمعنا بك يا سيد بوارو ونريد أن نتفّع بحضورك... ها
هو ميكى.

دخل علينا شاب بطيء الحركة يدل وجهه المدور
وحاجباه المرتفعان على تخلف ودهشة دائمة، وابتسم بصورة
عجيبة وهو يصاصفنا. يبدو أنه كان ذلك الابن «بطيء التفكير».

ثم قمنا جميعاً لوجبة العشاء، وعندما انصرف الدكتور
ليأتي ببعض الطعام صارت ملامح وجه الفتى متغيرة بصورة
مخيفة، فمال إلى الأمام وهو يحدق إلى بوارو وقال وهو يهز
رأسه: أنت جئت من أجل أبي، أعرف... أعرف أشياء كثيرة،
لكن لا أحد يظن أنني أعرف. أمي ستفرح حين يموت أبي
وتستطيع أن تتزوج الدكتور تريفيز. إنها ليست أمي، أنا لا
أحبها.

كان الأمر مرعباً، ومن حسن الحظ أن عاد الدكتور تريفيز
قبل أن يلفظ بوارو كلمة معه، وكان علينا أن ننشغل بحديث
آخر.

وفجأة أسند بوارو ظهره إلى الكرسي وجعل يتأوه ووجهه
يتلوى من الألم، وصرخ الدكتور: سيدي العزيز، ماذا أصابك؟

- تشنج مفاجئ... إنني معتاد عليه. لا، لا أحتاج مساعدة منك يا دكتور، هل يمكن أن أستريح في الطابق الأعلى؟

قُبِلَ طلبه فوراً، وصَحِبْتُهُ إِلَى الأعلى حيث سقط على سريره وهو يئنُّ بشدة. لقد ذُهلت قليلاً، لكنني فهمت بسرعة أن بوارو كان يمثّل وأن غايته أن يُتْرَكَ وحده في الطابق الأعلى بجوار غرفة المريض، وقد كنت مستعداً حين ففز واقفاً في اللحظة التي صرنا فيها وحدنا وهو يقول: أسرع يا هيستنغز، النافذة... اللبلاّب هناك في الخارج، نستطيع أن ننزلق عليه إلى الأسفل لنهرب قبل أن يشكّوا في غيابنا!

- ننزلق إلى أسفل؟!

- أجل، لا بد أن نخرج من هنا حالاً. هل رأيته في العشاء؟

- الطيب؟

- لا، بل الشاب تمبلتون... عاداته العجيبة في أكل الخبز! ألا تذكر ما أخبرتنا به مونرو؟ قالت إن كلود داريل كانت فيه عادة تفتيت الخبز على الطاولة ليأكل لب الرغيف. إنها مؤامرة مُحْكَمة يا هيستنغز، وهذا الفتى المعتوه هو عدونا الخبيث رقم (٤). أسرع!

انزلقنا على نبات اللبلاّب ونزلنا بسكون، وبالكاد أدركنا قطار الساعة الثامنة والنصف الذي ركبناه عائدين إلى لندن.

قال بوارو متأملاً: مؤامرة! تُرى كم واحداً منهم شارك فيها؟ أشك أن أسرة تمبلتون جميعاً ليسوا سوى عملاء للأربعة الكبار. هل أرادوا هكذا بسهولة أن نقع في شركهم أم أنها كانت مؤامرة أكثر مكرراً؟ هل كانوا... ماذا؟ إنني أتساءل!

ظل يفكر طويلاً. وعندما وصلنا إلى مسكننا أبقاني عند باب غرفة الجلوس قائلاً: تنبه يا هيستنز، عندي شكوك، دعني أدخل أولاً.

دخل، ثم ذهب يدور حول الغرفة كأنه قطة غريبة بحذر وهدوء شديد، وراقبته قليلاً وأنا في مكاني بجانب الحائط، ثم قلت وقد نفذ صبري: كل شيء على ما يرام يا بوارو.

- أرجو أنه كذلك، لكن دعنا نتأكد.

- سأشعل غليونني على كل حال. ها هي أعواد الثقاب وقد تركتها أنت هذه المرة ولم تُعدها إلى مكانها، وهو الأمر الذي كنت تعيبه عليّ.

مددت يدي فسمعت صرخة بوارو وهو يقفز نحوي، ولمست يدي علبة الكبريت ثم... وميض من اللهب الأزرق... ضربة على الأذن... وظلام!

* * *

استعدت وعيي لأجد صديقنا الدكتور ردغوي جاثياً فوقني وقد ظهرت الطمأنينة في وجهه. قال: ابق هادئاً، لقد وقع

حادث وأنت بخير.

- وبوارو؟

- أنت في بيتي، اطمئن.

شعرت بالخوف، تهربه من الجواب ألقى في نفسي خوفاً
رهيباً. هتفت: بوارو؟ أين بوارو؟

أدرك أن عليّ أن أسمع جواباً فقال: لقد نجوت بمعجزة،
أما بوارو فلم ينج!

انفجرت صرخة من بين شفتي: لم يمت، لم يمت!

حنى ردغوي رأسه، وجلستُ أنا وقلت بضعف: ربما
يكون بوارو قد مات... لكن روحه ستعيش! سأتابع عمله.
الموت للأربعة الكبار!

ثم سقطت على ظهري فاقداً الوعي.

* * *

الفصل السادس عشر

الصينيُّ يُحتَضِر

لا أحتمل الكتابة عن تلك الأيام ... بوارو مات! لقد كانت في علبة الكبريت لمسة شيطانية، كان محتملاً أن تلفت أعوادها غير المرتبة اهتمامه فيسرع لكي يُسِّق أعوادها المبعثرة، وهكذا تسبب اللمسة انفجاراً. والحق أنني أنا الذي عجلت في الكارثة، وهذا ملائي ندماً لا ينفع ولا يُدفع!

قال الدكتور ردغوي إن نجاتي كانت معجزة، لكن ارتجاجاً طفيفاً أصابني، وبعد أن استرجعت وعيي مشيت مترنحاً إلى غرفة مجاورة قبل حلول ظلام اليوم الذي تبع الحادث، ورأيت بحزن عميق تابوتاً من خشب الدردار ترقد فيه بقايا واحد من أعظم الرجال الذين عرفتهم.

ومنذ أول لحظة عاد فيها وعيي كان عندي هدف واحد، الانتقام لموت بوارو وأن ألاحق الأربعة الكبار بلا رحمة. وظننت أن الدكتور ردغوي يفكر مثلي، لكن الطيب الطيب بدا فاتراً ولم أعرف السبب.

"عُدْ إلى أمريكا الجنوبية". هكذا ظل ينصحنني، لماذا؟
لقد قال إن بوارو الخارق فشل، فهل أنجح أنا؟

لكنني أصررت وتجاهلت كل تشكيك في قدراتي. لقد عملت مع بوارو طويلاً، فتعلمت منه أسلوبه وشعرت بالقدرة على متابعة العمل الذي بدأه. لقد قُتل صديقي بطريقة قاسية، فهل عليّ أن أعود إلى أمريكا دون جهد لتقديم قتلته للعدالة؟

كل هذا قلته وقلت أكثر منه لردغوي الذي أنصت لي طويلاً قبل أن يعلق قائلاً: مهما يكن فإنني أنصحك، ولو كان بوارو نفسه بيننا لكان ألحَّ عليك بالعودة. أتوسل إليك باسمه أن تترك هذه الفكرة المتهورة وترجع إلى مزرعتك يا هيستنغز.

لكنني أصررت على جوابي، فلم يقل شيئاً وهزَّ رأسه بأسف.

* * *

مضى شهر استعدتُ فيه عافيتي، وفي نهاية شهر نيسان (أبريل) سعت إلى الاجتماع مع وزير الداخلية. وقد ذكرني رأي السيد كراوثر بكلام الدكتور ردغوي، ففي حين كان يشكرني كان يرفض عرضي بلطف وحذر. لقد صارت أوراق بوارو في حوزته، وقد أكَّد لي أنه سيتخذ كل عمل ممكن لمواجهة الخطر الذي يدنو ويقترب.

ومع هذا العزاء البارد أنهى السيد كراوثر اللقاء بأن ألحَّ

عليّ بالعودة إلى أمريكا، ولم أكن راضياً عن تلك الاقتراحات.
والآن يجب أن أصف جنازة بوارو.

كان احتفالاً وقوراً مهيباً، وكانت كلمات الإجلال التي
قيلت فخمة جزيلة. لقد جاء المعزّون من أماكن شتى وتوافدوا
إلى المكان الذي اختاره صديقي لنفسه، بلد إقامته. وغلبنى
الحزن وأنا أفف عند طرف المقبرة وتذكرت تجاربنا المختلفة
والأيام السعيدة التي عشناها معاً.

وفي بداية شهر آيار (مايو) رسمت خطة الحملة: لن أفعل
خيراً من اتباع خطة بوارو في الإعلان من أجل جذب كلود
داريل. نشرت إعلاناً في عدد من الصحف الصباحية، وكنت
أجلس في مطعم صغير في سوهو وأرى تأثير الإعلان من خلال
قراءتي للصحف.

وفجأة قرأت فقرة صغيرة صدمتني صدمة عنيفة: "اختفاء
السيد جون إنغليز من السفينة «شنغهاي» بعد مغادرتها ميناء
مرسيليا بقليل، ورغم أن الجو كان هادئاً تماماً لكن يُخشى أن
الرجل المسكين قد سقط من السفينة". وانتهت الفقرة بحديث
مقتضب حول خدمة السيد إنغليز الطويلة والمميزة في الصين.

كان الخبر محزناً، وأدركت أن وراء موت إنغليز دافعاً
شريراً. لم أصدّق أبداً النظرية القائلة بأنه مات بحادث، قطعاً
كان موته من فعل الأربعة الكبار الملعونين!

وبينما كنت مذهولاً من المصيبة أقلب المسألة كلها في

دماغي داخلني خوف من سلوك الرجل الجالس مقابلي، ولم أكن قد أعرته قبل ذلك كبيرَ اهتمام. كان نحيلاً أسمر متوسط العمر شاحب البشرة ذا لحية خفيفة، وجلس مقابلي بهدوء شديد حتى إنني لم أحسّ به، لكنه ما لبث أن بدأ بالتصرف بطريقة غريبة: مال إلى الأمام ونثر عمداً أربع كومات من الملح حول صحنِي، ثم قال بصوت كثيب: اسمح لي، إنهم يقولون إن تقديم الملح هو من نوع المواساة للغريب، أرجو أن تكون فهمت.

ثم صنع عند صحنه -في دلالة مؤكدة- ما فعله لي. كان الرمز «٤» واضحاً تماماً!

نظرتُ إليه بامعان، ولم أستطع أن أرى أنه يشبه تمبلتون الصغير ولا جيمس الخادم أو أيّاً من الشخصيات الأخرى المختلفة التي صادفتنا، لكنني كنت جازماً بأنني أواجه رقم «٤» المروع نفسه. والصوت كان فيه شبهً ضعيف من صوت الرجل الغريب ذي المعطف المزرّر الذي زارنا في باريس.

نظرتُ حولي متردداً أفكر في ردّ الفعل المناسب، وبدأ أنه يقرأ أفكارِي فتبسم وهزّ رأسه بلطف، وقال: لا أنصحك بهذا. تذكر ما حدث من العجلة في باريس. إن طريق هروبي مفتوح تماماً، أنت تضمّر الشر قليلاً يا كابتن هيستنغز.

قلت وأنا أختنق من الغضب: تباً أيها الشيطان!

- غضبان... أنت تافه غضبان. لا بد أن صاحبك الراحل

أخبرك أن الرجل الذي يظل هادئاً يجني دائماً منفعة عظيمة.

صحتُ فيه: أتجرؤ أن تتكلم عن الرجل الذي قتلته بتلك
الطريقة القذرة؟

قاطعني قائلاً: لقد جئتُ هنا من أجل هدف سلمي، لكي
أنصحك بأن تعود إلى أمريكا الجنوبية فوراً. لو فعلت ذلك
ستنتهي المسألة بقدر ما يعني ذلك الأربعة الكبار ولن نؤذيك
أنت ولا زوجتك، أعدك بذلك.

ضحكت بازدياء وقلت: وإذا رفضت؟

- هذا ليس أمراً، لنقل فقط إنه تحذير. التحذير الأول،
أنصحك أن لا تضيعه.

ثم نهض وانسلّ خارجاً بسرعة نحو الباب قبل أن أقدر
نيته. ولحقته على الفور، لكن حظي كان تيسياً، فقد اصطدمت
برجل بدين سدّ الطريق، وحين فككت نفسي منه كان طريدي
يجتاز مدخل الباب. وقابلني نادل يحمل كومة كبيرة من
الصحون صدمني أيضاً دون انتباه، وما إن وصلت الباب حتى
كان الرجل قد اختفى.

كان اعتذار النادل سمجاً وجلس الرجل البدين بهدوء
على طاولة قريبة وطلب غداءه. ربما كان كلا الحادثين مصادفة،
لكنني كنت أعرف جيداً أن عيون الأربعة الكبار كانت في كل
مكان.

لقد شدّني تحذير الرجل، لكنني سأعمل أو أموت من أجل قضية صالحة.

* * *

لم أستلم إجابات مفيدة على الإعلانات، إنما وردتني إجابتان من ممثلين عملاً مع داريل قليلاً ولم يكونا يعرفانه عن قرب ولم يتذكرا هويته أو مكانه. ثم مرّت عشرة أيام ولم تظهر علامة أخرى من الأربعة الكبار، وكنت أقطع حديقة هايد بارك وأنا حائر أفكر حين ناداني صوت امرأة واضح، يبدو أنها أجنبية.

- أنت الكابتن هيستنغز، أليس كذلك؟

توقفت سيارة أجرة فاخرة بجانب الرصيف وأطلت منها امرأة تلبس ثوباً أسود وعقدت من اللؤلؤ رائعاً. عرفتها، الكونتيسة فيرا روساكوف، جنديّة الأربعة الكبار.

كان لبوارو ولع خفي بالكونتيسة، شيء ما فيها جذب الرجل الضئيل، فكان في لحظات الحماسة يقول إنها امرأة تساوي ألفاً من النساء ولو كانت تعمل ضدنا.

قالت: آه، لا تعبر الشارع. عندي شيء مهم جداً أريد أن تسمعه، وإياك أن تسعى إلى اعتقالي لأن ذلك سيكون غباء منك. أنت غبي لأنك عازم أن لا تطيع تحذيرنا، وهذا هو تحذيرنا الثاني جاءك معي: غادر إنكلترا في الحال، بقاؤك لا يفيد، لن تجني شيئاً هنا أبداً.

- كلکم مهتمون بإخراجي من البلد، عجباً!

رفعت روساكوف كتفيها استهجاناً وقالت: أنا أظن أنك أحق، وكنت سأتركك هنا تعمل بسعادة، لكن الرؤساء يخافون كلمة منك ربما تساعد أولئك الذين هم أكثر ذكاء منك. كظمت غيظي، فقد أزعجتني كلمتها لأن فيها إشارة استخفاف بي.

قالت: هذا ما سوف يكون. من السهل أن يقتلوك، لكنني أشفق على الناس أحياناً. إنني أناشدك إن لك زوجة صغيرة حسناء في مكان ما، أليس كذلك؟ وسوف يسعد الرجل الضئيل في قبره أنك لم تمت. لقد كان يعجبني، كان ذكياً! لو لم تكن قضية أربعة مقابل واحد لعظّمناه كثيراً. لقد كان بوارو أستاذي، وقد أرسلت إكليلاً إلى الجنازة إعلاناً عن تقديري، إكليلاً كبيراً من الورود القرمزية التي أحبّها.

استمعت إليها بصمت وحنق وهي ما زالت تتكلم: حسناً، لقد أبلغتك تحذيري فتذكّر، الإنذار الثالث سيأتي من يد المدمر. ثم أشارت للسائق فانطلقت السيارة، ولاحظت رقمها لكنني لم أتوقع أي فائدة منه، فالأربعة الكبار لا يَغفلون عن هذه التفاصيل.

رجعت إلى البيت هادئاً قليلاً. لقد عرفت من السيل الجارف من كلماتها حقيقة واحدة: إن حياتي في خطر! لكن

لا، لن أتخلى، بل سأمضي بحذر شديد وأحترس.

وبينما أنا أعرض كل هذه الحقائق وأدرس خير طريقة في العمل رنّ الهاتف. رفعت السماعة وأجبت: نعم، مرحباً، من يتكلم؟

ردّ علي صوت حادّ: مستشفى سينت غيلز. عندنا هنا رجل صيني طعن بالسكين وجيء به إلينا، لن يعيش طويلاً، وقد اتصلنا بك لأننا وجدنا في جيبه قصاصة ورق عليها اسمك وعنوانك.

قلت وأنا على درجة كبيرة من الذهول: سأحضر فوراً.

يقع مستشفى سينت غيلز بجانب أحواض السفن، إذن فلعل الصيني يكون قد هبط لتوّه من سفينة، أم أن الأمر كله فخ؟ مهما يكن فربما يكون لشانغ ين يدٌ فيما يجري. لن تضرنني زيارة المستشفى، فعسى أن يبوح لي الصيني المحتضر بشيء أستتير به. سوف أبقى على درجة كبيرة من الحذر وإن ظهرتُ وكأنني أمضي برجليّ غافلاً إلى فخ.

وصلتُ المستشفى، وبعد أن عرّفت بنفسي قادتني بعض الممرضات فوراً إلى جناح الحوادث.

رأيت الصيني راقداً بلا حركة، جفناه مغمضان وصدرة ينبض نبضاً ضعيفاً يدل على أنه ما زال يتنفس. وقف عنده طبيب وأصابعه تجس نبض الرجل، وهمس: كأنه ميت، هل تعرفه؟

- لا، لم أراه من قبل أبداً.

- عجباً، إذن لماذا كان اسمك وعنوانك في جيبه؟ أنت الكابتن هيستنغز، أليس كذلك؟

- بلى، لكنني لا أدري.

- تدل أوراقه على أنه كان خادماً عند رجل يدعى إنغليز، وهو موظف حكومي متقاعد. أنت تعرفه، أليس كذلك؟

إذا كان خادم إنغليز فلا بد أنني رأيته من قبل، لكنني لا أستطيع أن أميز صينياً عن آخر. لا بد أنه كان مع إنغليز في طريقه إلى الصين وبعد حصول الكارثة رجع هنا برسالة قد تكون خاصة بي، يجب أن أسمع الرسالة.

سألت الطبيب: هل هو في وعيه؟ هل يستطيع الكلام؟ السيد إنغليز كان صديقي القديم، ولعل هذا المسكين أحضر لي رسالة منه، فقد أشيع أن السيد إنغليز اختفى من سفينته قبل عشرة أيام.

- بالكاد يعي ما يدور حوله، لكنه ليس قادراً على الكلام لأنه فقدَ دماً كثيراً. سأعطيه حقنة منشطة. لقد بذلنا غاية وسعنا في علاجه.

حقنه الطبيب بإبرة تحت الجلد، وبقيتُ واقفاً عنده راجياً أن يتكلم كلمة واحدة أو يحرك يده بإشارة ربما تكون ذات دلالة، لكن الدقائق مضت ولم يتحرك.

وخطرت ببالي فكرة مقلقة. ألا يمكن أن أكون قد وقعت في فخ؟ لعل هذا الرجل انتحل شخصية خادم إنغليز وهو في الحقيقة جندي للأربعة الكبار. لا بد أن أحذر.

في تلك اللحظة تحرك الرجل في سريره. فتح عينيه وهمس وعينه مثبتة عليّ. لم تصدر عنه أي حركة تدل على أنه عرفني، لكنني أدركت حالاً أنه يريد أن يكلمني، وسواء كان صديقاً أو عدواً فينبغي أن أستمع إليه.

انحنيت فوق السرير، إلا أنني لم أفهم شيئاً من صوته المتهدج. سمعت كلمة «هاند» ولم أفهمها، ثم كررها الرجل مع كلمة أخرى، «لارغو». وحدقت إليه بذهول وسألته: «هاندلز لارغو»؟

طرف جفنيه بسرعة كأنه وافق، ثم أضاف كلمة أخرى بدت لي إيطالية: «كاروزا». بعدها همهم بكلمتين قصيرتين شعرت أنهما إيطاليتان أيضاً، ثم سكت فجأة، فاندفع الطبيب إليه ونحاني جانباً. كان كل شيء قد انتهى، فالرجل قد مات.

خرجت مرة أخرى إلى الهواء الطلق وأنا في حيرة شديدة. إذا كانت معلوماتي صحيحة فإن كلمة «كاروزا» الإيطالية معناها «عربة». وماذا عن هاندلز لارغو؟ ماذا وراء تلك الكلمات القليلة؟ الرجل صيني وليس إيطالياً، فلماذا يكلمني بالإيطالية؟ إذا كان هو خادم إنغليز فعلاً فلا بد أن يعرف الإنكليزية. الأمر عجيب. يا ليت بوارو عندي لكي يحل هذه المشكلة!

* * *

وصلت إلى البيت وصعدت ببطء إلى غرفتي ، فوجدت على الطاولة رسالة. فتحت الظرف ونظرت إليها فجمدت في مكاني في الحال ، فقد كانت بلاغاً من شركة محامين ، وكان فيها:

سيدي العزيز ،

حسب وصية موكلنا السيد هيركيول بوارو نرسل إليك هذه الرسالة المرفقة التي وصلتنا قبل أسبوع من وفاته ، وفيها أنه يجب علينا أن نرسلها إليك في تاريخ معين بعد وفاته.

قلبت الرسالة المرفقة عدة مرات. إنها من بوارو حتماً ، فأنا أعرف خطه. ومن ثم فتحتها بشوق واستعجال وبقلم مثقل وقرأت فيها:

صديقي العزيز ،

لن أكون موجوداً لدى استلامك هذه الرسالة. لا تأسف عليّ ولكن اتبع أوامري: عند استلامك هذه الرسالة ارجع إلى أمريكا الجنوبية فوراً. لا تكن عنيداً. أنا لا أناشدك أن تُنجز هذه الرحلة من أجل العاطفة ، بل إنها ضرورية ، جزء من خطة هيركيول بوارو. ولعلك فهمت يا صديقي الذكي.

مع تحياتي من قبيري!

صديقك المحب: هيركيول بوارو

قرأت تلك الرسالة مراراً. شيء واحد فيها كان واضحاً: لقد أعدّ الرجل المذهل نفسه لكل احتمال، حتى إن موته لم يضرب تسلسل خطته، وكما كانت العادة دائماً، أنا العضو المنفذ وهو العقل المدبر. سيظن أعدائي أنني استجبت لتحذيرهم وينسون أمري، ثم أعود دون اشتباه لأتابعهم من جديد.

أرسلت برقية وحجزتُ في السفينة «أنزونيا» المسافرة إلى بيونس آيرس، وبعدها أبحرت السفينة أحضر لي المضيف رسالة استلمها من رجل ضخم يرتدي معطف فرو، وقد غادر السفينة قبل أن تُرفع ألواح المعابر الخشبية. فتحتها وقرأتها، وكانت فيها بضع كلمات فقط: أنت حكيم، رقم «٤».



كان البحر هادئاً واستمتعتُ بعشاء حسن، وشاركت بعض زملائي المسافرين في ألعاب الورق، ثم أويت إلى قمرتي ونمت كالقتيل. ثم صحوت من حلم رأيت فيه نفسي أهتز هزاً متصلاً، فرأيت - وأنا مذهول - القبطان يقف عند رأسي.

هتف: شكراً لله، صحوت أخيراً! هل تنام بهذا العمق دائماً؟

- ماذا في الأمر؟ هل أصاب السفينة شيء؟
- ظننتُ أنك تعرف. إنها أوامر قيادة البحرية، توجد مدمرة تنتظر لتنتقل معها.

- ماذا؟ في وسط المحيط؟! -

- ليس هذا شأنِي، لقد أرسلوا إلى السفينة شاباً يحل محلّك، وقد أقسمنا جميعاً على الكتمان. هلاًّ نهضت وارتديت ثيابك بسرعة؟

نفّذت ما طُلب مني وأنا في غاية الدهشة. ثم أنزلوا القارب ونُقلت إلى المدمرة حيث استقبلوني بترحيب، لكنني لم أفهم شيئاً. كانت أوامر القائد أن أنزل في بقعة محددة على الساحل البلجيكي، وهناك تنتهي معرفته ومسؤوليته.

كل شيء كان كالحلم، لكن ما استقرّ في قلبي أن هذا لا بدّ أن يكون جزءاً من خطة بوارو. ينبغي أن أسير كالأعمى واثقاً من صديقي الذي مات!

هبطت في النقطة المحددة، وكانت هناك سيارة تنتظرني، وتحركنا بسرعة عبر سهول فليميش الواسعة. أمضيت تلك الليلة في فندق صغير في بروكسل، ثم واصلنا المسير في اليوم التالي فدخلنا الغابات والجبال، وعرفت أننا في جبال الأردن.

وفجأة تذكرت أن لبوارو أخاً يعيش في منتجع قريب، لكننا لم نذهب إليه. تركنا الطريق الرئيسي وخرجنا ناحية الهضاب في مكان منعزل حتى وصلنا إلى قرية صغيرة فيها دارة منعزلة، فوقفت السيارة أمام بابها الأخضر، ونزلت من السيارة. كان على مدخل الباب عجوز ينحني لي، وقال بالفرنسية: كابتن هيستنغز؟ أرجوك اتبعني.

ثم مشى أمامنا عابراً القاعة، وفي نهايتها فتح باباً كبيراً
على مصراعيه ووقف جانباً لكي يسمح لي بالدخول.

طرفت عيناى قليلاً لأن الغرفة كانت مطلة على جهة
الغرب وشمس الأصيل تخترقها، ثم فتحت عيني فرأيت رجلاً
يمدّ يده إليّ. كان ذلك الرجل... آه، مستحيل! كيف؟ ولكن،
نعم.

صحت: بوارو! ولم أحاول التهرب من العناق الذي
غمرنى به.

- نعم، نعم، ليس سهلاً قتل بوارو.

- ولكن، بوارو... لماذا؟

- الحرب خدعة يا صديقي، الحرب خدعة. كل شيء
جاهز الآن لسباق الجائزة الكبرى!

- لماذا لم تخبرني؟

- لا يا هيسستغز، لم أتمكن، لأنك ما كان يمكن أبداً أن
تمثّل دورك في جنازتي عندئذ بالاتقان الذي سارت به الأمور.

- وماذا عن المعاناة التي مررت بها؟

- لا تظن أنني بلا مشاعر، فأنا شاركتك فيها وتحملت
الهم والحزن من أجلك. لقد كنت مستعداً للمخاطرة بحياتي
الخاصة، لكنني كنت قلقاً دائماً وأنا أعرض حياتك أنت للخطر

معي، فلما وقع الانفجار خطرت الفكرة في بالي، وساعدني
ردغوي الطيب لتنفيذها: أنا ميت وأنت ستعود إلى أمريكا
الجنوبية. لكن هذا ما لم تكن لتفعله يا صديقي، فكان عليّ
أن أدبر رسالة من المحامي لأقنعك به أخيراً. على كل حال
ها أنت هنا، وهذا هو الإنجاز العظيم. والآن نحن نستلقي
هنا بعيدين حتى تأتي لحظة الانقلاب الكبير الأخير، الإطاحة
بالأربعة الكبار.

* * *

الفصل السابع عشر

رقم «٤» يظفر بحيلة

في معتزلنا الهادئ في جبال الأردن كنا نراقب الأمور. كانت تصلنا الكثير من الصحف، وفي كل يوم كان بوارو يتلقى ظرفاً ضخماً لاحظت أنه يحتوي على تقرير من نوع ما.

لم يكن يطلعني على ما يصله، لكنني كنت أدرك من تعابير وجهه إذا كانت الأمور مُرضية أو غير ذلك. وهو لم يتزحزح عن يقينه بأن خطتنا هي التي ستنجح أخيراً، وقال لي في أحد الأيام: لقد كنت في خوف دائم لأن حياتك كانت في خطر، وهذا جعلني متوتراً دائماً، أما الآن فأنا مرتاح تماماً، ولو أنهم عرفوا بطريقة ما أن الكابتن هيستنغز الذي وصل إلى الأرجنتين ليس هو هيستنغز نفسه فإنهم سيظنون أنها خطة من إعدادك ولن يُتعبوا أنفسهم في تعقبك بعد ذلك. إنهم مؤمنون بحقيقة واحدة، أنني ميت، ولذلك فإنهم سوف يستمرون في العمل ويتابعون خططهم.

- وبعد ذلك؟

- بعد ذلك يعود هيركيول بوارو. سأعود وأظهر في اللحظة الأخيرة وأحقق النصر العظيم!

لاحظت أن غرور بوارو يصمد في كل الظروف كدرع من فولاذ، وذكّرتُه بأن الظفر كان لأعدائنا في بعض المرات، ولكن ذلك كله لم يؤثر في حماسته التي كانت لا تفتر.

قال: إنها كالحيلة الصغيرة التي تلعبها بالورق يا هيستنغز؛ تأخذ الشباب الأربعة فتوزعهم عشوائياً وتخلط الورق، ثم تراهم يعودون جميعاً معاً مرة أخرى! هذا هو هدفي: كنت أناضل مرة ضدّ واحد من الأربعة الكبار ومرة ضدّ واحد آخر، فلا جمعهم الآن معاً مثل الشباب الأربعة، وبعد ذلك أفضي عليهم جميعاً بضربة واحد.

- وكيف تنوي جمعهم معاً؟

- بانتظار اللحظة الأشدّ خطورة. سنبقى بعيدين حتى يصبحوا جاهزين لضربتهم.

- هذا يعني انتظاراً طويلاً.

- أنت متعجّل دائماً يا هيستنغز الطيب. لا، لن يطول الأمر كثيراً، فالرجل الوحيد الذي كانوا يخافونه ابتعد عن طريقهم. إنها شهران أو ثلاثة أشهر ليس أكثر.

ذكّرني كلامه بإنغليز وميتته المأساوية، ثم تذكرت أنني لم أخبر بوارو عن الرجل الصيني الذي كان يحتضر في مستشفى

سينت غليز، وعندما أخبرته بها أنصت إلى قصتي بانتباه شديد.

- خادم إنغليز؟ والكلمات القليلة التي نطقها كانت إيطالية؟ هذا عجيب!

- هذا هو سبب شكوكي أنها ربما تكون مكيدة من الأربعة الكبار.

- أخطأت يا هيستنغز، شغلّ خلاياك الرمادية. لو أراد أعداؤك خداعك فإنهم حتماً سيجعلون ذلك الصيني ينطق بالإنكليزية نطقاً ركيكاً. لقد كانت الرسالة واضحة. أخبرني بما سمعته مرة أخرى.

- أولاً ردّد كلمتي هاندلز ولازغو، ثم نطق بكلمة كأنها «كاروزا». إنها العربة باللغة الإيطالية، أليس كذلك؟

- أهذا كل ما قاله؟

- حسناً، في النهاية همهم بكلمة بدت وكأنها «كارا». ربما كان اسم رجل، وختم أخيراً بما بدالي اسم امرأة، «زيا».

- ليس الأمر كما بدالك؛ إن «كارازيا» كلمة مهمة جداً يا هيستنغز.

- لم أفهم.

- يا صديقي العزيز، أنت لم تدرك! إن الإنكليز لا يعرفون الجغرافيا.

هتفت: الجغرافيا؟! وما علاقة الجغرافيا بنا؟

- لو راجعت «دليل كوك» السياحي فسوف تدرك المقصود على الفور.

رفض بوارو أن يقول أي كلمة أخرى، وكان ذلك تصرفاً يبعث على السخط، لكنني لاحظت أنه صار مرحاً كأنما سجل نقطة.

* * *

مضت الأيام مملّة. كانت في الدارة كتب كثيرة، إلا أنني كنت أضيع أحياناً بالخمول في حياتنا. وعجبت من هدوء بوارو، حتى كان آخر شهر حزيران (يونيو)، وهو الوقت الأقصى الذي قدّره بوارو لهم، عندها وصلنا خبراً عن الأربعة الكبار.

وصلت سيارة إلى البيت في وقت مبكر من الصباح، وكان ذلك حدثاً غير عادي، فنزلت مسرعاً لكي أشبع فضولي، فوجدت بوارو يكلم شاباً في مثل عمري ذا وجه مرح. وقدمني إليه قائلاً: هذا هو الكابتن هارفي يا هيستنغز، إنه واحد من أعظم رجال استخباراتكم شهرة.

قال هارفي وهو يضحك: أخشى أنني لست مشهوراً أبداً.

- لست مشهوراً إلا بين هؤلاء الذين يعرفونك. نعم، فمعظم أصدقاء الكابتن هارفي يحسبونه شاباً ضائعاً يصرف وقته في التوافه.

ضحكنا نحن الثلاثة، ثم قال بوارو: هيا إلى العمل. إذن
فأنت ترى أن الوقت قد حان؟

- نحن واثقون من ذلك يا سيدي. لقد أغلقت الصين
حدودها ومطاراتها أمس، فماذا يجري فيها؟ لا أحد يعلم
شيئاً، كتمان وصمت كامل.

- إذن فقد كشف لي شانغ ين خططه! ماذا عن الآخرين؟

- وصل أبي ريلاند إلى إنكلترا قبل أسبوع وطار إلى
أوروبا أمس.

- والسيدة أوليفيه؟

- غادرت باريس الليلة الماضية.

- إلى إيطاليا؟

- نعم، إلى إيطاليا يا سيدي. حسب معلوماتنا ذهب
كلاهما إلى المنتجع الذي أشرت إليه. لكن كيف عرفت أن...

- لست أنا من عرف، إنه من عمل هيستنغز.

نظر هارفي إليّ بتقدير، فشعرت بعدم الارتياح. وقال
بوارو: إذن فكل شيء يمشي بنظام؟

ثم صار وجهه بارداً جاداً وأكمل يقول: لقد حان الوقت.
هل تمت كل الإعدادات؟

- لقد نفذنا كل ما أمرت به. إن حكومات إيطاليا وفرنسا

وإنكلترا تفف معك وتعمل معاً بانسجام وتنسيق.

قال بوارو باسترخاء: آه، هذا حلف جديد إذن؟ أنا مسرور لأن دسجارديو اقتنع أخيراً. جيد، إذن سنبدأ، أو على الأصح سأبدأ أنا. أنت ستبقى هنا يا هيستنغز، نعم، أرجوك، حقاً إنني جادّ يا صديقي.

لم أرضَ بأن أبقى هناك. كان جدالنا قصيراً وحاسماً. بعدها ركبنا معاً القطار المتجه إلى باريس، وعندها قال: إن لك دوراً يا هيستنغز وقد أفضل من دونك، لكنني رأيت من واجبي أن أطلب منك البقاء بعيداً.

- إذن ففي الأمر خطر؟

- حيث يكون الأربعة الكبار يكون الخطر يا صديقي.

وصلنا إلى باريس فركبنا سيارة إلى محطة القطارات الشرقية، وهناك أعلن بوارو عن وجهته: بولزانو الإيطالية.

كنا في القطار بعد قليل، وعندما خرج هارفي من مقصورتنا سألت بوارو: لماذا قلت إن كشف المكان كان من عملي؟

- لأن هذه هي الحقيقة يا صديقي. لقد اكتشف إنغليز معلومة مهمة جداً. لا أعرف كيف اكتشفها، لكنه فعل، وقد أرسلها إلينا مع خادمه. نحن متجهون الآن إلى كاريزسي، الاسم الإيطالي الجديد لما كان يسمّى لاغو دي كاريزا. هل فهمت الآن من أين جاءت كلمات «كارا زيا» و«كاروزا» و«لارغو»؟

أما كلمة «هاندلز» فقد تكون كلمة عرضية ليست ذات معنى.

- كاريسي؟ لم أسمع بها من قبل.

- ألم أقل إن الإنكليز لا يعرفون الجغرافيا؟ إنها منتجع شهير، منتجع صيفي جميل جداً على ارتفاع أربعة آلاف قدم في دولوميت في جبال الألب.

- وهناك يكون لقاء الأربعة الكبار؟

- إنه مقر قيادتهم، هناك يعتزلون العالم ومن هناك يصدرون أوامرهـم. لقد تحققت من هذا الأمر، هناك عدد من المنشآت يجري تنفيذها، ولعل الشركة التي تنفذها شركة إيطالية صغيرة يسيطر عليها آبي ريلاند. لقد حفروا في قلب الجبل مقراً حصيناً يصعب الوصول إليه، ومن هناك يصدرون أوامرهـم بجهاز لاسلكيٍّ لأتباعهـم الذين ينتشرون في كل بلد بالآلاف. من ذلك الوكر سيخرج حكام العالم المستبدون الجدد... أعني: كانوا سيخرجون لو لم يكن هيركيول بوارو موجوداً!

- حقاً تقول يا بوارو؟ وماذا عن الجيوش والأسلحة؟

- إن الخطر في تجارب واختراعات السيدة أوليفيه. لقد نجحت في تحرير الطاقة الذرية وتسخيرها لخدمة أغراضهـم الخبيثة، وقد جربت أيضاً تجميع الطاقة اللاسلكية لتركيز إشارة لاسلكية ذات ذبذبة عالية على بقعة محددة وحققت تقدماً كبيراً. ولا تنسَ ثروة ريلاند وعقل لي شانغ ين: أعظم عقل

إجرامي في التاريخ!

جعلتني كلماته أفكر. أحياناً يبالغ بوارو في لغته، لكنني عرفت لأول مرة أيّ صراع يائس كنا فيه.

ثم عاد هارفي وانضم إلينا، ومضى بنا القطار حتى وصلنا إلى بولزانو ظهراً، ثم ركبنا سيارة من السيارات الزرقاء التي كانت تنتظر في ساحة البلدة. ورغم حرّ النهار كان بوارو ملفعاً بمعطف كبير ووشاح حتى عينيه وشحمتي أذنيه، ربما من الحذر أو هو خوف زائد من البرد.

انقضت الرحلة في ساعتين، وكانت رحلة رائعة، حيث اخترقنا المنحدرات الصخرية الضخمة على مقربة من الشلالات، ثم دخلنا وادياً خصباً لبضعة أميال، ثم صعدنا بطريق متعرج إلى أعلى الجبل، وفي أسفل الطريق حوافّ صخرية تظهر في آخرها غابات الصنوبر الكثيفة. ما أجمل ذلك المكان!

مضينا نسير في الطريق الذي يمتد وسط غابات الصنوبر حتى دخلنا أخيراً منعطفاً خفياً فوصلنا إلى فندق ضخم. وكانت غرفنا محجوزة فاتجهنا إليها على الفور بأمر هارفي، وكانت غرفاً تطل على القمم الصخرية والمنحدرات المكسوة بغابات الصنوبر، فأوماً بوارو بيده إليها وسأل هارفي همساً: هل هو هناك؟

- نعم، مكان يُدعى «فلسن لابايرينث»، وهو محاط

بالصخور الهائلة وفيه طريق يخترقها عن يمين المحجر.

هزّ بوارو رأسه ثم قال لي: تعال يا هيستغز نجلس في الشرفة ونستمتع بضوء الشمس.

- وهل تظنّ ذلك أمراً حكيماً؟

رفع كتفيه بلامبالاة. وفي الحقيقة كان ضوء الشمس لطيفاً، وهناك شربنا القهوة، وكان بوارو ساهماً يفكر، وقد هزّ رأسه مرة أو مرتين وتنهّد عدة مرات.

أثار اهتمامي رجل ترجّل من قطارنا في بولزانوا واستقبل بسيارة خاصة، وكان رجلاً ضئيل الجسم ملفعاً بشيابه مثل بوارو، وبالإضافة إلى المعطف الكبير والوشاح كان يغطي عينيه بنظارة داكنة. كنت مؤمناً بأن معنا جاسوساً للأربعة الكبار، لكنّ بوارو لم يوافقني، إلا أنني عندما أخرجت رأسي من نافذة غرفتي لمحتّه يتمشى قريباً من الفندق!

أصررتُ على بوارو أن لا ينزل للعشاء، لكنه أبقى. ودخلنا غرفة الطعام متأخرين فأشير إلينا بالجلوس عند طاولة قريباً من النافذة. وبينما نحن جلوس لفتت انتباهنا صيحة عالية وصوت تحطّم صحن سقط على الأرض. كانت في الصحن فاصولية خضراء أمام رجل عند الطاولة القريبة منا، وجاء مدير الصالة يعتذر.

وعندما كان النادل الذي أسقط الصحن يقدم لنا الحساء كلّمه بوارو قائلاً: إنها حادثة سيئة، لكنها لم تكن غلطتك.

- هل رأى سيدي ذلك؟ لم تكن غلطتي، الرجل وثب عن كرسية.

رأيت عيني بوارو تشعان بالضوء الأخضر الذي كنت أعرفه جيداً، وعندما غادر النادل همس في أذني: هل ترى يا هيستنغز؟ هيركيول بوارو وتأثيره حياً وميتاً!

- هل تظن...؟

لم أستطع أن أكمل، فقد شعرت بيد بوارو على ركبتي بينما كان يهمس باهتمام: انظر يا هيستنغز، انظر. عاداته في تفتيت الخبز... رقم «٤»!

حقاً، صاحبنا الجالس إلى الطاولة المجاورة كان وجهه شاحباً وكان يفتت الخبز بطريقة آلية. تمنعتُ فيه بحذر، وجهه حليق ومنتفخ وشاحب شحوباً مصطنعاً، وتحت عينيه تجاعيد كبيرة، ومن أنفه خطوط عميقة حتى شفثيه، عمره بين الخامسة والثلاثين والخامسة والأربعين، ولم يكن يشبه أحداً ممن تشبه بهم رقم «٤» من قبل، ولولا عاداته في تفتيت الخبز لأقسمت أنني لم أره من قبل قط.

همست: لقد عرفك، ما كان يجب أن تنزل إلى صالة الطعام.

- يا صديقي هيستنغز الرائع، إنما كنت ميتاً ثلاثة أشهر من أجل هذا!

- لكي تُرهب رقم «٤»؟

- لكي أراه في لحظة يلزمه العمل فيها بسرعة، وهو لا يعرف أننا عرفناه، يظن أنه آمن في تنكره الجديد. كم أدعو لفلوسي مونرو لأنها حدثتنا عن عاداته النافعة هذه!

- ماذا سيحدث الآن؟

- ماذا يمكن أن يحدث؟ لقد بُعثَ الرجل الذي يخشاه من موته بمعجزة في اليوم الذي نضجت فيه خطط الأربعة الكبار. السيدة أوليفيه وآبي ريلاند تناولوا غداءهما هنا اليوم وأظنهما ذهبا إلى كورتينا. ماذا نعرف عنهم؟ هذا سؤال رقم «٤» لنفسه. إنه لا يجروء على المجازفة.

نهض الرجل عن الطاولة المجاورة وخرج، وقال بوارو بهدوء: لقد ذهب لإعداد خطة صغيرة. ألا نشرب قهوتنا في الحديقة يا صديقي؟ سأذهب إلى غرفتي لآتي بمعطف.

خرجت إلى الحديقة وأنا مضطرب قليلاً. لم يقنعني كلام بوارو، فرأيت أن أبقى على حذر كبير.

عاد بوارو بعد خمس دقائق وهو متلفح حتى أذنيه؛ إنها احتياطاته المعتادة ضد البرد. جلس بجانبني ورشف قهوته بإعجاب، ثم قال: في إنكلترا القهوة دائماً رديئة، أما الأوروبيون فإنهم يُتقنون تحضيرها.

ثم ظهر صاحبنا في الحديقة فجأة، وبلا تردّد أقبل علينا وسحب كرسيّاً إلى طاولتنا قائلاً: هل تسمحان أن أجلس معكما؟

قال بوارو: طبعاً، تفضل.

وشعرت بالارتباك. صحيح أننا كنا في حديقة الفندق
والناس حولنا، لكنني لم أكن راضياً، بل أوجست خطراً.

في غضون ذلك تحدث رقم «٤» بطريقة طبيعية توحى بأنه
ليس إلا سائحاً عادياً، فوصف النزاهات ورحلات السيارة، ثم
أخرج غليوناً من جيبه وجعل يُشعله، وأخرج بوارو علبة التبغ
الصغيرة، وحين وضع لفافة بين شفتيه مال إليه الرجل الغريب
مع عود ثقاب قائلاً: دعني أشعلها لك.

وبينما هو كذلك إذ انطفأت كل المصايح، وسمعتُ
طقطقة زجاج وأحسستُ شيئاً لاذعاً تحت أنفي كاد يخنقني!

* * *

الفصل الثامن عشر

في فيلسن لا بايرينث

لم أفقد وعيي إلا دقائق معدودة، صحوت بعدها لأجد نفسي محمولاً بقوة بين رجلين يمسكان بذراعي ويساعدانني على النهوض، وكانت في فمي كمامة! كان المكان حالك السواد لكنني توقعت أننا لم نكن خارج الفندق، وكل ما استطعت أن أسمعه حولي هو صراخ وتساؤل من الناس عما أصاب المصابيح.

أنزلني خاطفي إلى درج لولبي، وعبرنا ممراً في سرداب ثم خرجنا من باب إلى الهواء مرة أخرى ثم إلى باب زجاجي وراء الفندق، ثم التجأنا إلى أشجار الصنوبر حيث لمحت رجلاً آخر معي، فعرفت أن بوارو أسير أيضاً.

بهذه الجراءة ربح رقم «٤» اليوم! أظنه استعمل مخدراً سريعاً لعله كلوريد الإيثيل، فكسر زجاجة صغيرة تحت أنفينا، وفي غمرة الفوضى دفع شركاؤه (ولعلمهم الضيوف الجالسون حولنا) بالكمامتين في أفواهنا وأسرعوا بنا خارجين.

بعد ذلك دُفعنا بسرعة في الغابات ، وكنا طول الوقت نصعد نحو أعلى الهضبة ، ثم خرجنا أخيراً إلى مكان مكشوف عن جانب الجبل فرأينا أمامنا تلاً غريباً من الصخور الرائعة. لا شك أن هذا المكان هو فيلسن لا بايرينث الذي ذكره هارفي.

بعد وقت قصير كنا ندور في طرق ملتوية وندخل في الصخور ثم نخرج منها، وفجأة توقفنا، فقد اعترضتنا صخرة ضخمة، فوقف أمامها أحد الرجال وبدا وكأنه يدفع شيئاً، فتدحرجت الصخرة الكبيرة وكشفت عن نفق صغير له فتحة تؤدي إلى جانب الجبل. دخلنا هناك، وكان النفق ضيقاً في أوله، إلا أنه لم يلبث أن اتسع حتى خرجنا إلى مساحة فسيحة مضاءة بالكهرباء. هناك رُفعت الكمامتان عن أفواهنا، وبإشارة من رقم «٤» الذي وقف مقابلنا ساخراً ففتشونا وأخرجوا كل شيء في جيوبنا، حتى مسدس بوارو الصغير، وقذفوه على الطاولة.

أصابني هم شديد. لقد غلبنا، غلبونا وتفوقوا علينا.

قال رقم «٤» باستهزاء: مرحباً بكما في مقرّ قيادة الأربعة الكبار يا سيد بوارو، كم أنا سعيد بلقائك مرة ثانية، فهل كانت العودة من الموت من أجل هذا؟

لم يُجبه بوارو ولم أجرؤ على النظر إليه، فيما أكمل الرجل قائلاً: تعال من هذا الطريق لو سمحت. إن حضورك سيكون مفاجأة لأصحابي.

ثم أشار إلى باب ضيق في الجدار دخلنا منه ، فإذا نحن في
غرفة أخرى في آخرها طاولة عندها أربعة كراسي ، كان الرابع
منها خالياً لكنه مكسو برداء المندرين .

على الكرسي الثاني جلس أبي ريلاند وفي فمه سيغار ،
وجلست السيدة أوليفيه على الكرسي الثالث وهي تتكى على
ظهره بعينيها المتوهجتين ووجهها الخاشع كالراهبة ، وجلس
رقم «٤» على الكرسي الرابع . لقد كنا في حضرة الأربعة الكبار !
ولم أشعر من قبل بالحضور الطاعي لشانغ ين كما شعرت
في تلك اللحظة وأنا أنظر إلى مقعده الخالي . فرغم أنه بعيد ،
بعيد جداً في الصين ، إلا أنه يسيطر على هذه المنظمة الخيثة
ويديرها بكل قوة .

صرخت السيدة أوليفيه صرخة باهتة حين رأتنا ، أما
ريلاند فكان أكثر ضبطاً لنفسه ، فقد رفع حاجبيه الأشيبين وقال
بتمهّل : السيد هيركيول بوارو؟ يا لها من مفاجأة! لقد أنجزت
عملك بنجاح وخذعتنا حتى ظننا أنك متّ ودُفنت . لا علينا ،
فقد انتهت اللعبة الآن .

كانت في صوته رنة كأنها رنة فولاذ ، ولم تقل السيدة
أوليفيه شيئاً لكن عينيها كانتا تشتعلان . ما أسوأ ابتسامتها الباردة!
قال بوارو بهدوء : أيتها السيدة وأيها السيدان ، أرجو لكم
أمسية طيبة .

شيء مفاجئ ، صوت لم أكن أتوقع سماعه جعلني أنظر

إليه. بدا رابط الجأش، ولكن مع ذلك لمحت في وجهه شيئاً مختلفاً. ثم تحركت الستارة من خلفنا ودخلت الكونتيسة فيرا روساكوف، فقال رقم «٤»: آه، صاحبتنا الغالية! عندنا صديق قديم لك هنا يا سيدتي العزيزة.

صُعقت الكونتيسة لمرآنا وصاحت: يا إلهي، إنه الرجل الضئيل! آه، إنه كالمقط، له تسع أرواح! لماذا تصرّ على حشر نفسك في كل مكان؟

- سيدتي، أنا مثل نابليون العظيم، لا بد أن أبقى في صحبة الكتاب المحاربة.

وبينما كان يتكلم رأيت في عينيها ارتياباً مفاجئاً، وفي اللحظة نفسها جاءتني الفكرة. الرجل الذي كان بجانبني لم يكن هيركيول بوارو! لقد كان يشبهه كثيراً، رأسه بيضوي كرأسه ويمشي باختيال مثله، وكان ممتلئ الجسم على نحو جميل، لكن الصوت كان مختلفاً والعينان كانتا سوداوين لا خضراوين، ثم الشارب؟ الشارب المشهور.

قالت الكونتيسة بصوت يحمل كل معاني الدهشة: لقد خُدعتم. هذا الرجل ليس هيركيول بوارو!

صاح رقم «٤» صيحة شك، لكن الكونتيسة تقدمت من بوارو وشدّت شاربه فإذا به يسقط في يدها! ثم ظهرت الحقيقة، فشفة هذا الرجل مخدوشة خدشاً غير صورة الوجه تماماً، وهمس رقم «٤»: إنه ليس هيركيول بوارو، فمن يكون إذن؟

صرخت فجأة: أنا أعرف.

ثم سكتُ جامداً خشيّة أن أكون قد أفسدت الخطة، لكن صاحبِي التفت إليّ ليشجعني: قلها إن أردت، لقد نجحت الحيلة.

قلت: هذا أشيل بوارو، أخو هيركيول التوأم.

قال ريلاند مشدوهاً: مستحيل!

قال أشيل: لقد نجحت خطة هيركيول نجاحاً رائعاً.

صاح رقم «٤»، وكان صوته خشناً متوعداً: نجحت؟ هل تعرف أنك ستموت؟

قال أشيل بهدوء: نعم، أعرف. أنت لم تفهم أن رجلاً باع حياته ليشتري النجاح. في الحرب رجال يضحون بأرواحهم من أجل بلادهم، وأنا أضحي بحياتي من أجل العالم.

تذكرت حينئذ أنني كنت أرغب بالتضحية بحياتي رافضاً إلحاح بوارو أن أبقى، وشعرت بالرضا.

سأله ريلاند بتهكم: وكيف ستنفع العالم تضحيتك؟

- أنتم لم تدركوا جوهر خطة هيركيول بعد. أولاً كان مقركم هذا معروفاً منذ بضعة أشهر وكان الزوار وموظفو الفندق من رجال المخابرات، فقد ضرب حصار حول الجبل لكيلا تستطيعوا الهرب. إن هيركيول بوارو نفسه يدير العمليات من الخارج، وقد لطختُ حذائي باليانسون هذه الليلة قبل أن أنزل

إلى الحديقة مكان أخي. الكلاب تتعقب الأثر الآن، وسوف يقودهم إلى الصخرة في فيلسن لا بايرينث حيث المدخل. إذن افعلوا بنا ما تريدون، فالشبكة حولكم مشدودة بإحكام ولن تستطيعوا الفرار.

ضحكت السيدة أوليفيه فجأة وقالت: أنت مخطيء، فأماننا طريق نهرب منه مثل شمشون القديم. سندمر أعداءنا. ماذا تقولون يا أصحابي؟

كان ريلاند يحدّق إلى أشيل بوارو، ثم قال بصوت غليظ: لعله يكذب.

رفع أشيل كتفيه استهجاناً وقال: سيطلع الفجر بعد ساعة وسترى حقيقة كلماتي. لا ريب أنهم قد تبعوا آثار قدمي حتى باب فيلسن لا بايرينث.

بينما كان يتكلم سمعنا ضجة وصراخ رجل متقطع، فقفز ريلاند عن كرسيه وخرج، واتجهت السيدة أوليفيه إلى آخر الغرفة ففتحت باباً لم ألاحظه من قبل، ولمحت في الداخل مختبراً مجهزاً تجهيزاً حسناً كمختبرها في باريس. أما رقم «٤» فقفز أيضاً من مقعده وخرج، ثم عاد يحمل مسدس بوارو فأعطاه للكونتيسة وقال وهو متجهم: ليس هروبهما ممكناً، لكن الأحسن أن يكون معك هذا.

ثم خرج مرة أخرى، فجاءت الكونتيسة إلينا ونظرت إلى رفيقي قليلاً ثم ضحكت وهي تقول: ما أشد ذكائك يا سيد

أشيل بوارو!

- سيدتي، دعينا نتحدث في العمل. نحن الآن وحدنا
لحسن الحظ، ما هو ثمنك؟

- لم أفهم. أي ثمن؟

- سيدتي، أنت تستطيعين أن تساعدنا على الهروب،
فأنت تعرفين الطريق السري الذي يؤدي إلى خارج هذا المخبأ،
لذلك أسالك: ما هو ثمنك؟

ضحكت مرة أخرى وقالت: أكثر مما تدفعه أيها الرجل
الضئيل. إن كل الأموال في الدنيا لن تشتريني!

- سيدتي، أنا لم أتكلم عن المال. أنا رجل ذكي وأعلم
أن لكل إنسان ثمناً مقابل الحياة والحرية، وأنا أعرض عليك
ما ترغبين.

- إذن فأنت ساحر.

- سمّيني بما شئت.

فجأة تغيرت الكونتييسة، فتكلمت بمرارة وعاطفة قائلة:
هل تستطيع أن تنتقم من أعدائي؟ هل تستطيع أن تعيد لي
الشباب والجمال والقلب السعيد؟ هل تستطيع أن تحيي الميت
مرة أخرى؟

كان أشيل يراقبها باهتمام، ثم سألها: أي أمنية من الثلاث
تريدين؟ اختاري واحدة يا سيدتي.

ضحكت ضحكة طويلة ساخرة ثم قالت: أو تملك أكسير الحياة؟ حسناً، لقد كان لي طفل، فأعده لي واذهب حراً طليقاً.

- أوافق يا سيدتي. سيعود طفلك إليك، هذا ضمان هيركيول بوارو نفسه.

ضحكت مرة أخرى ضحكة طويلة ثم قالت: عزيزي بوارو! أخشى أنني ورطتك في وعد مستحيل. إن وعدك هذا لطف كبير، لكنك لن تنجح وسوف تكون هذه صفقة من طرف واحد.

- سيدتي، أقسم لك أنني سأعيد طفلك إليك.

- لقد سألتك من قبل يا سيد بوارو: هل تملك أكسير الحياة؟

- إذن، فإن الطفل...

- ميت؟ نعم.

تقدم إليها وأمسك بمعصمها قائلاً: سيدتي، أنا أقسم مرة أخرى.

حدّثت إليه كأنما سحرها. قال: أنت لا تصدقين؟ سأثبت لك صدقي؛ أحضري محفظتي التي أخذوها مني.

خرجت من الغرفة ثم عادت تحملها بيدها وهي ما زالت تقبض على المسدس، وشعرت أن فرصة أشيل في خداعها كانت ضعيفة، فالكونتيسة فيرا روساكوف لم تكن حمقاء.

قال: افتحيها يا سيدتي، والآن أخرجي الصورة وانظري.

كانت تتأرجح بين الدهشة والشك وهي تُخرج صورة صغيرة من المحفظة، وما إن نظرت إليها حتى صرخت وترنحت كأنها توشك على السقوط، واندفعت ناحية رفيقي تصيح بانفعال: أين؟ أين؟ سوف تخبرني... أين؟

- تذكّري الصفقة يا سيدتي.

- نعم، سأثق بك. هيا بسرعة قبل أن يعودوا.

جرّته وهي تمسك بيده، وبهدوء خرجا من الغرفة وتبعتهما، ومن الغرفة الخارجية قادتنا إلى النفق الذي دخلناه أول مرة، ثم دارت عن اليمين حيث تفرّع الممر، وهناك قادتنا إلى الأمام بسرعة وبلا تردد. ثم قالت وهي تلهث: يا ليتنا نصل بسرعة ونخرج إلى المنطقة المكشوفة قبل أن يقع الانفجار!

ركضنا طويلاً، وعرفت أن النفق يخترق الجبل وأنا يجب أن نعبره بطوله لنخرج أخيراً إلى الجانب الآخر. تصبب العرق من وجهي ولكنني واصلت الركض، ثم رأيت شعاع النهار من بعيد. كان يقترب أكثر وأكثر، ثم وصلنا إلى شجيرات خضراء شققنا طريقنا عبرها إلى بقعة مكشوفة وصلناها مع ضوء الفجر الباهت الذي صبغ الجبل والسماء باللون الوردي.

كان كلام بوارو عن حصار الجبل حقيقة، فما إن خرجنا حتى قبض علينا ثلاثة رجال، لكنهم أطلقونا بسرعة مع صرخة

ذهول، وصرخ رفيقي: أسرعوا، أسرعوا، لا وقت نضيّعه.

لم يكن مقدراً له أن ينهي كلامه، فقد ارتجّت الأرض واهتزّت تحت أقدامنا. كان انفجاراً مربعاً، وبدا أن الجبل كله يتفسّخ ويتشقق، فطرنا عالياً في الهواء وفقدت الوعي.

* * *

عندما استعدت وعيي وجدت نفسي مستلقياً في سرير غريب في غرفة غريبة، وقد وقف بجوار النافذة شخص ما، ثم التفت وخطا فوقف بجانبني. لقد كان أشيل بوارو. آه، لا، إنه هو! هذا الصوت الساخر المعروف قضى على شكوكي كلها.

- نعم يا صديقي، إنه أنا. لقد عاد أخي أشيل إلى موطنه، عاد إلى أرض الأساطير. أشيل كان أنا طوال الوقت! لا تظن أن رقم «٤» هو من يستطيع أن يتنكر دون غيره. المسحوق في العينين والتضحية بالشاربين، وأثر جرح حقيقي من الضربة التي سببت لي ألماً قبل شهرين... لم أستطع أن أجازف ببديل متنكر تحت عين رقم «٤» التي تشبه عين النسر. ثم اللمسة الأخيرة هي يقينك أن لي أحياناً اسمه أشيل بوارو. ما أغلى مساعدتك لي! إن نصف النجاح الذي حققناه في عمليتنا العظيمة يرجع فضله إليك، فعقدة المسألة كلها كانت أن أجعلهم يظنون أن هيركيول بوارو ما زال حراً طليقاً يدير العمليات، وكل ما عدا هذا كان صادقاً: اليانسون والحصار... كل هذه الأشياء.

- ولماذا لم ترسل بديلاً عنك فعلاً؟

- وأترك تواجه الخطر منفرداً؟ ثم كان في نفسي أمل
أن نهرب مع الكونتيسة.

- لكن كيف أقنعته بالله عليك؟ لقد كانت قصة سخيفة
لكي تجعلها تصدق كل ذلك عن طفل ميت؟

- الكونتيسة ذات ذكاء حاد يا هيستنغز. لقد فوجئت أولاً
بشخصيتي المتكبرة، لكنها عرفت الحقيقة بعد ذلك، وحين
قالت "ما أشد ذكاءك يا سيد أشيل بوارو" عرفت أنها خمنت
الحقيقة، لذلك كان الوقت مناسباً تماماً لألعب ورقتي الراححة.

- بكل ذلك الهراء عن إعادة طفل إلى الحياة؟

- تماماً، لكن الطفل كان معي منذ البداية.

- ماذا؟!!

- نعم، فأنت تعرف شعاري: «كن مستعداً». حين وجدت
الكونتيسة متورطة مع الأربعة الكبار اجتهدت لأعرف كل ما
أستطيع عن ماضيها، فعلمت أنه كان لها طفل قيل إنه قُتل، ثم
نجحت في اقتفاء أثره ودفعت مالا كثيراً حتى جاز لي أن أتبنى
الطفل. لقد كاد الطفل المسكين يموت لولا أنني أبقيته عند
أناس طيبين في مكان آمن وصورته في بيته الجديد. وهكذا،
حين آن الآوان كانت حركتي المسرحية جاهزة.

- ما أعظمك يا بوارو، ما أعظمك!

- لقد سرنني تنفيذ هذه الخطة، فأنا كنت معجباً بالكونتيسة

وكنت سأسف لو أنها ماتت في الانفجار.

- وماذا عن الأربعة الكبار؟

- عُثِرَ على جثثهم كلها، ولم نعرف جثة رقم «٤» تماماً، فقد تمزق جسده إرباً. كنت أتمنى أن لا ينتهي الأمر هكذا. ولكن انظر إلى هذه.

قدّم لي صحيفة فيها خبر انتحار لي شانغ ين، قائد الانقلاب الأخير الفاشل في الصين. ثم قال: خصمي العظيم! كان قدري أن لا ألقاه وكلانا حي، فحين فشلت محاولته هناك وبلغه نبأ الكارثة هنا قتل نفسه. إنه عقل عظيم يا صديقي، عقل عظيم.

ها نحن قد واجهنا الأربعة الكبار وهزمناهم يا صديقي، والآن ستعود إلى زوجتك الساحرة، وأنا سوف... سوف أعتزل الناس. لقد انتهت أعظم قضية في حياتي وأي شيء آخر سيبدو تافهاً بعدها. سوف أعتزل الناس، وربما أزرع الكوسا وأتزوج وتطمئن نفسي.

ضحك كثيراً، ثم قال مرة أخرى: أتزوج وتطمئن نفسي؟ من يدري؟!

* * *

-تَمَّت-

روايات أغاثا كريستي حسب ترتيب الصدور

العناوين العربية في هذه القائمة هي الروايات التي نشرناها في «الأجيال» والعناوين الأجنبية للروايات التي لم نشرها بعد (وسوف نشرها تباعاً خلال ثلاث سنوات بإذن الله)

- (١) قضيّة ستايلز الغامضة (١٩٢٠)
- (٢) The Secret Adversary (١٩٢٢)
- (٣) جريمة في ملعب الغولف (١٩٢٣)
- (٤) Poirot Investigates (١٩٢٤)
- (٥) ذو البدلة البنية (١٩٢٤)
- (٦) The Secret of Chimneys (١٩٢٥)
- (٧) مقتل روجر أكرويد (١٩٢٦)
- (٨) الأربعة الكبار (١٩٢٧)
- (٩) The Mystery of the Blue Train (١٩٢٨)
- (١٠) The Seven Dials Mystery (١٩٢٩)
- (١١) شركاء في الجريمة (١٩٢٩)
- (١٢) The Mysterious Mr Quin (١٩٣٠)
- (١٣) جريمة في القرية (١٩٣٠)
- (١٤) لغز سيتافورد (١٩٣١)

- (١٥) خطر في البيت الأخير (١٩٣٢)
- (١٦) ثلاثة عشر لغزاً (١٩٣٢)
- (١٧) موت اللورد إدجوير (١٩٣٣)
- (١٨) كلب الموت (١٩٣٣)
- (١٩) جريمة في قطار الشرق (١٩٣٤)
- (٢٠) The Listerdale Mystery (١٩٣٤)
- (٢١) لماذا لم يسألوا إيفانز؟ (١٩٣٤)
- (٢٢) تحريات باركر باين (١٩٣٤)
- (٢٣) مأساة من ثلاثة فصول (١٩٣٤)
- (٢٤) موت وسط الغيوم (١٩٣٥)
- (٢٥) الجرائم الأبجدية (١٩٣٦)
- (٢٦) Murder in Mesopotamia (١٩٣٦)
- (٢٧) أوراق على الطاولة (١٩٣٦)
- (٢٨) Murder in the Mews (١٩٣٧)
- (٢٩) Dumb Witness (١٩٣٧)
- (٣٠) موت فوق النيل (١٩٣٧)
- (٣١) Appointment with Death (١٩٣٨)
- (٣٢) جريمة عيد الميلاد (١٩٣٨)
- (٣٣) Murder is Easy (١٩٣٩)
- (٣٤) ثمّ لم يبقَ أحد (١٩٣٩)
- (٣٥) السّرّو الحزين (١٩٤٠)
- (٣٦) إيزيم الحذاء (١٩٤٠)

- (١٩٤١) Evil Under the Sun (٣٧)
(١٩٤١) N or M? (٣٨)
(١٩٤٢) جنّة في المكتبة (٣٩)
(١٩٤٢) Five Little Pigs (٤٠)
(١٩٤٢) الإصبع المتحرك (٤١)
(١٩٤٤) Towards Zero (٤٢)
(١٩٤٤) في النهاية يأتي الموت (٤٣)
(١٩٤٥) Sparkling Cyanide (٤٤)
(١٩٤٦) The Hollow (٤٥)
(١٩٤٧) The Labours of Hercules (٤٦)
(١٩٤٨) ركوب التيّار (٤٧)
(١٩٤٩) البيت الأعوج (٤٨)
(١٩٥٠) A Murder Is Announced (٤٩)
(١٩٥١) لقاء في بغداد (٥٠)
(١٩٥٢) موت السيدة ماغنّي (٥١)
(١٩٥٢) خداع المرّايا (٥٢)
(١٩٥٣) After the Funeral (٥٣)
(١٩٥٣) جيّبٌ مليء بالحبوب (٥٤)
(١٩٥٤) Destination Unknown (٥٥)
(١٩٥٥) Hickory Dickory Dock (٥٦)
(١٩٥٦) مبنى الرجل الميّت (٥٧)
(١٩٥٧) قطار ٤,٥٠ من بادنغتون (٥٨)

- (٥٩) محنة البريء (١٩٥٨)
- (٦٠) Cat Among the Pigeons (١٩٥٩)
- (٦١) مغامرة كعكة العيد (١٩٦٠)
- (٦٢) الحصان الأشهب (١٩٦١)
- (٦٣) شرخ في المرأة (١٩٦٢)
- (٦٤) الساعات (١٩٦٣)
- (٦٥) A Caribbean Mystery (١٩٦٤)
- (٦٦) في فندق بيرترام (١٩٦٥)
- (٦٧) الفتاة الثالثة (١٩٦٦)
- (٦٨) ليل لا ينتهي (١٩٦٧)
- (٦٩) By the Pricking of My Thumbs (١٩٦٨)
- (٧٠) Halloween Party (١٩٦٩)
- (٧١) مسافر إلى فرانكفورت (١٩٧٠)
- (٧٢) انتقام العدالة (١٩٧١)
- (٧٣) ذاكرة الأفيال (١٩٧٢)
- (٧٤) Postern of Fate (١٩٧٣)
- (٧٥) قضايا بووارو المبكرة (١٩٧٤)
- (٧٦) الستارة (١٩٧٥)
- (٧٧) الجريمة النائمة (١٩٧٦)
- (٧٨) القضايا الأخيرة للآنسة ماربل (١٩٧٩)
- (٧٩) Problem at Pollensa Bay (١٩٩١)
- (٨٠) While the Light Lasts (١٩٩٧)